«حول العالم في كتب»
بإشراف الدكتور عز الدين فريد

إندونيسيا...
شعبها وأرضها

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة — نيويورك

أكتوبر سنة ١٩٦٢

إندونيسيا ...
شعبها وأرضها

تأليف

ديفيس سميث

ترجمة

حسن محمود

تقديم

حسن جلال العروسى

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف : ديتس سميث

معروف فى آسيا والشرق الأوسط بأنه « السفير الأمريكى للكتب » . ويعمل حالياً رئيساً لمؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بأمريكا . شغل من قبل عدة مناصب فكان مديراً لمطبعة جامعة برنستون ، كما كان رئيساً لاتحاد مطابع الجامعات الأمريكية .

وكان عضواً فى مجلس إدارة جمعية ناشرى الكتاب الأمريكى ، وعضواً باللجنة الأهلية . له نشاط ملحوظ فى كثير من الميادين الخاصة بصناعة الكتب .

ولد سميث بولاية متشجان وتلقى دراسة القانون بمدارس باسادينا بولاية كاليفورنيا . حصل على درجة بكالوريوس العلوم فى سنة ١٩٢٩ كما منحته جامعة برنستون درجة الماجستير الفخرية فى سنة ١٩٥٨ اعترافاً منها باسهامه فى نشر الثقافة عن طريق مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر .

المترجم : حسن محمود

ترجم كتاب دزرائيلى لاندريه موروا وكتاب كليمنصو لدوديه . ترجم مسرحية فرجينيا لالفييرى ونشرت له عـــدة مؤلفات ، منها دراسة عن دستويفسكى وأخرى عن تولستوى ومجموعة قصص

تحت عنوان : أجواء ، وقصة طويلة بعنوان : الجدة الصغيرة . وهو الآن يعمل مستشاراً أدبياً لمؤسسة فرانكلين ، كما أنه أستاذ منتدب لتدريس أدب المسرح فى المعهد العالى للفنون المسرحية منذ سنة ١٩٤٨ . وعضو للجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

مصمم الغلاف : أحمد محمد منيب

تخرج فى كلية الحقوق سنة ١٩٦١ بجامعة القاهرة ، ويعمل محرراً بمؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر . صمم أكثر من غلاف لكتب المؤسسة .

محتويات الكتاب

مقدمة

بقلم

حسن جلال العروسى

هـذا الكتاب باكورة سلسلة جديدة نقدمها — بسم الله الرحمن الرحيم — إلى القارىء العربى عامة . وإلى شبابه المتوثب خاصة .. هذه السلسلة هى « حول العالم فى كتب » وهى تستهدف أن تمحو الحـدود بين الثقافات وتفتح النوافذ بين أقطار العالم، فتصل ما بيننا وبين جميـع اخواننا فى البشرية بنور هو أقدس ما أشعه الله سبحانه على الأرض . . نور العلم والمعرفة ، وعلى ضياء هذا النور المقدس تلتقى الآراء الشتى ويجتمع الرأى المختلف، فيسود التعاون بدلا من التباغض ، ويزدهر التفاهم ، ليمحو الفرقة والتنابذ .

لقد حاولنا فيما نشرناه من كتب علم النفس أن نساعد القارىء على أن يكشف أدغال الفلسفة الاغريقية الخالدة ، وهى التى تدعو إلى أن « اعرف نفسك » على أساس أن معرفة الذات والتمعن فى

داخل النفس مفتاح يؤدى بنا إلى معرفة الكون . ومن أجدر منى بالبحث فى نفسى ، تلك النفس التى أعرفها كل المعرفة ، وأجهلها كل الجهل ، فى وقت واحد . فلو أنى كشفت خوافيها ، وتبينت حقائقها ، إذن لكشفت الكون كله ، وعرفت الناس أجمعين . فما هم إلا أنا ، وما أنا إلا هم . . مثل يتكرر ويختلف ، وخلية واحدة تجمعها البشرية وتفرقها أغوار فى النفس متضاربة.

أما هـــذه السلسلة فهى تدعوك — إلى جانب معرفتك لنفسك — إلى أن تعرف جارك وزميلك وأخاك فى الانسانية. وهل نحن فى عالم اليوم ،عالم الذرة والفضاء والصواريخ، إلا أخوة تجمعنا وحدة الأمل ، ووحدة الخطر ، ووحدة الخوف من المصير المشترك ؟ .

إن رفاهة العالم أو نهايته لم تعد اليوم شأن فرد واحد ، ولا دولة واحدة ، بل شأن دول العالم جميعا ، وأفراد العالم مجتمعين . ولم تعد الشئون الخارجية والدبلوماسية أسرارا كهنوتية تتخفى وراء أستار محجبة بمعزل عن الرأى العام فى الدولة ذاتها ، وإنما صار للفرد كلمة ينبغى لها أن تسمع ، وينبغى له أن يكون قد أحسن إعداد نفسه ليقولها وليفهمها وليكون فى النهاية لبنة قوية فى بناء قوى متماسك هو الرأى العام القومى والرأى العام العالمى .

من أجل ذلك شاعت فى العالم هذه الكتب التى تعالج التعريف بالبلاد المختلفة، وشعوبها، وأهلها، واقتصادياتها، وجغرافيتها، والسياحة اليها، وما إلى ذلك مما يرسم صورة أقرب ما تكون إلى الوضوح عن هذه البلاد. واتجهت الأغلبية العظمى من هذه الكتب إلى التبسيط والبعد عن التعمق بحيث يتناول كل كتاب منها المعالم الهامة عن البلد الذى يتحدث عنه.

وهذه السلسلة التى نقوم بترجمتها تصدر عن دار النشر الأمريكية المعروفة «لبينكوت Lippincott» وقد جرى العمل فيها على أن يختار الناشر مؤلف كل كتاب من بين علماء البلد الذى يؤلف عنه، أو من بين العلماء المتخصصين فى هذه الدراسات. وقد كان للعالم الأمريكى والأوروبى نصيب الأسد فيما صدر فى هذه المجموعة من كتب، فلم يكن عالمنا الآسيوى الأفريقى يحظى بنصيب من منشورات هذه المجموعة إلى أن استعرضت وصديقى الأستاذ ديتس سميث رئيس هذه المؤسسة النقص الواضح فى نشاط هذه المجموعة، والفائدة الكبيرة التى تعود على قراء هذه المجموعة من شباب الأمريكيين إذا وسعت آفاقها بحيث تشمل بلادنا الافريقية والآسيوية ودولها النامية التى صار لها دور كبير لا بد أن تلعبه فى ماجريات الأحداث. ومن الخير للأمريكيين

أن يسعوا لمعرفة سكان هذا الجزء من العالم ، كما يسعون لمعرفة غيرهم من الناس .

وهكذا بذل ديتس سميث جهدا مشكوراً فى تقديم مصر فى هذه المجموعة ، ووقع الاختيار على صديق الأديب الفيلسوف الدكتور زكى نجيب محمود لكتابة العدد الخاص بمصر[١] فأخرجه لقرائه منذ بضع سنوات ، فكان الكتاب نافذة جديدة أطل العالم منها على مصر .

كذلك عهد الناشر الأمريكى إلى صديق الأستاذ ديتش سميث بتأليف هذا الكتاب الذى أقدمه للقارىء عن أندونيسيا ففعل .

والمؤلف يعرف أندونيسيا وأهلها معرفة وثيقة ويحبها حباً لا يصعب على القارىء تلمسه فى سطور هذا الكتاب وبين سطوره .

وقد أهدى المؤلف الكتاب إلى صديق من أصدقائه الأندونيسيين وإلى زوجته ، هما حسن شديلى وزوجته جوليا .

(١) Mahmoud, THE LAND AND PEOPLE OF EGYPT.

والأستاذ ديتس سميث مؤلف هـــذا الكتاب هو مدير لمؤسسة فرانكلين بنيويورك ، وهو بهـذه المثابة ليس غريبا على القراء ولا هو دخيل على عالم الكتب والنشر . وإذا كان مجال هذه المقدمة أضيق من أن يتسع للحديث عن دراسته والدرجات العلمية التى نالها ، والأعمال التى تولاها ، فانى لن أترك الفرصة تمر دون أن أشيد بالجهود التى يبذلها فى ميدان ترجمة الكتب ونشرها بأكثر من لغة . وأنه لمن حسن الطالع حقاً أننا التقينا للعمل معاً ، كل منا يستهدف خدمة بلاده عن طريق التبادل الثقافى ، وأثمر هذا اللقاء على رأى كان من نتائجه هذه الكتب التى تصدرها مؤسسة فرانكلين لأبنائنا ومواطنينا من الناطقين بالعربية ، وإذا كان الحكم على الرجال يقدر بما يقومون به من خدمات لمواطنيهم بوجه خاص ، ولأخوانهم فى الإنسانية بوجه عام ، فانى أترك للزمن الحكم على ما تقوم به المؤسسة التى أتشرف بادارتها فى مصر ، وعلى الدور الذى لعبه ويلعبه ديتس سميث فى توفير هذا الفيض الهائل من المعرفة .

وبعد ، فانى أظل أطالب ولدىّ الشابين أن يكونا على أعمق إيمان بمصريتهما وعروبتهما ، كما أظل أطالبهما أن يكونا على أعمق إيمان بعالميتهما ، عقيدة منى ثابتة أن شعورنا بمصريتنا

يعمق شعورنا بعالميتنا ، كما يرسى شعورنا بعالميتنا دعائم شعورنا بمصريتنا ، وإيمانا منى ثابتا أن الاحساس بمصريتنا بعيد الجذور فى نفوسنا نحن المصريين . وقد استطعنا به أن نظل مزهوين بالبلد الذى نبتنا فيه ، نخضنا بهذا الزهو أحلك أيام التاريخ ، وصهرتنا الأيام فى بوتقة الاحتلال حقبا طويلة ، ولكن المعدن الكريم من المصرية ظل خالصا على السنوات ، نقيا على المحن ، لم يختلط أو تمسه شائبة ، حتى أننى كلما فكرت فى عمق مصرية هذا الشعب وثب إلى ذهنى ذلك الحديث المأثور الذى تواتر عن الأغريق حين غزا الرومان بلادهم ، فقيل حينذاك أن الرومان غزوا الاغريق ، فأصبح الرومان أسرى للاغريقيين !

هكذا نحن ، وهكذا سنظل على مر الأيام ، وأعتقد أن هذا الاعتزاز بمصريتنا يحتم علينا أن نمد بأنظار ثقافتنا إلى كل بلاد العالم ، لا يصدنا عن بلد شىء . . فالثقافة تخترق من الحدود ما تغلقه السياسة والأنظمة .

وبعد ، فهذا الكتاب هو كتابنا الأول فى هذه السلسلة ، كما أسلفت ، وهو عن أندونيسيا . أنها بلاد أصبحت ملء الأسماع اليوم ، وان كانت فى الواقع لم تصبح على هذه الشهرة إلا منذ سنة ١٩٤٥ بعد هزيمة اليابان فى الحرب العالمية الثانية ،

فقد أعلن زعماء الشعب استقلالها ، وكان هذا الاعلان من جانب واحد .

وأندونيسيا مجموعة كبيرة من الجزر ، يسود فيها اللون الأخضر ، وتلتقي فيها مباهج الطبيعة .

أما أبناء اندونيسيا فهم من شعب الملايو مع مزيج من الدماء الهندية والصينية والعربية والأوروبية ، وتسعة أعشار الأندونيسيين من المسلمين ، وان كانت لتقاليد الديانات الهندية والبوذية نفوذها الكبير . ولقد جاهد الاندونيسيون أجيالا طويلة ليصدوا عن بلادهم غارات المغيرين التى كانت تأتيهم من الصين حينا ومن أوروبا حينا آخر .

وبعد ، فبين يديك كتاب كامل عن اندونيسيا تجد فيه ما يشوقك عنها من معلومات . فاليك نقدم هذا الجهد واثقين أن الفائدة التى تعود عليك من قراءته هى أعظم جزاء نلقاه على تقديمه إليك .

الفصل الأول

الأرض الخضراء وأهلها

إنا إذا اتخذنا طريقنا من أى بلد عربى فى الشرق الأوسط عبر البحر الأحمر أو الخليج العربى إلى المحيط الهندى للدوران حول جنوب شرق آسيا ، فإننا نجد فى طريقنا الأرخبيل الأندونيسى بجزره التى تتكون منها بلاد أندونيسيا الخضراء .

وهى بلاد بعيدة جداً عن العالم العربى ، بعيدة جداً عن أوربا وعن العالم الجديد بقارتيه أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية . وهى كذلك جديدة جداً بالنسبة لاشتراكها فى أمور العالم ، حتى أن الكثيرين فى العالمين القديم والجديد لا يعرفون إلا القليل من أمور تلك البلاد التى تشغل فى موقعها الجغرافى مركزاً لا يشغله بلد آخر من بلاد العالم .

ليست أندونيسيا رقعة متصلة من الأرض ، وإنما هى مجموعة من الجزر ، فهى أرخبيل يحتوى على أكثر من ثلاثة

آلاف جزيرة ، بعضها صغير لا يزيد على بضعة أميال مربعة ، ولكن بعض جزرها مثل بورنيو العظيمة تعتبر من حيث الاتساع ثالثة جزر العالم ، ويبلغ طول سومطرة من طرف إلى طرف نحو ألف ميل .

ويغمر شواطىء هذه الجزر المحيط الهادى والمحيط الهندى وبحر الصين الجنوبى . وأقرب البلاد إليها سنغافورة والملايو فى شمالها ، والفيلبين إلى الشمال الشرقى منها ، واستراليا إلى الجنوب الشرقى .

أعلنت جمهورية أندونيسيا استقلالها سنة ١٩٤٥ فقط ، لذلك كثيراً ما نظن أنها بلد صغير لحداثة عهده كأمة متحررة ، ولذلك كان من الواجب أن نبدأ اتصالنا بهذا البلد وأهله ، واضعين نصب أعيننا أمرين أساسيين عن تلك الأرض التى تعترينا الدهشة لمساحتها . وهذان الأمران هما :

١ — تعتبر أندونيسيا من حيث عدد السكان سادسة بلاد العالم ، فلا يزيد عليها من هذه الناحية غير الصين والهند والاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة واليابان ، إذ يقدر سكانها بتسعة وثمانين مليوناً من الأنفس .

٢ — تبلغ المسافة من شرق الجزر الأندونيسية إلى الطرف الآخر ٢٥٠٠ ميل ، أى أكثر من ثلاثة أضعاف المسافة من القاهرة إلى بغداد ، وأبعد من المسافة بين مدينة نيويورك على الأطلنطى ومدينة سان فرانسسكو على المحيط الهادى ، وتمتد من الشمال إلى الجنوب لمثل المسافة من القاهرة إلى طهران ، أو من القاهرة إلى أسمرة ، ومن مينا بوليس الأمريكية إلى مدينة نيو أورليانز .

ليس الاتساع وحده هو ما يسترعى أنظارنا ، بل يجب أن نذكر حديث الأساطير عن « جزر الهند » ، فهى جزر التوابل المعروفة فى التاريخ والمذكورة فى السير ، وهى البلاد التى اقترن ذكرها بأسماء ماركو بولو ، وقبلاى خان ومجللان وسير فرانسيس دريك والقديس فرانسيس زافييه وأولئك الرحالة المغامرين من عصر الاستكشافات ، وفيها كانت تلك الفخامة والتقاليد فى بلاط الملوك العظام فى جاوة وتلك البلاد التى كانت فى وقت من الأوقات تؤلف امبراطورية الهولنديين . وأندونيسيا حتى اليوم فى زمن التنقل بالنفاثات تعتبر من أجمل وأزهى الأماكن على الأرض .

والحياة الطبيعية فى أندونيسيا لها أيضاً بهاء ، وتأثير خاص ،

فأكثر جبالها العظيمة براكين ، فهى بلاد معروفة بأنها من أكثر مناطق العالم فى البراكين ، وفى الغابات الكثيفة الخضراء على جوانب الجبال ، وفى السهول أو المستنقعات المنخفضة نجد مظاهر حياة الوحوش من قردة ونمور وأفراس البحر (كادت تنقرض) وأفاع يبلغ طولها ثلاثين قدما وخنازير برية وتماسيح وطيور عجيبة ذات ريش جميل وعدد لا يحصى من الحيوانات الصغيرة والحشرات تفوق الوصف فى ألوانها الرقيقة الجميلة .

وانتاج الأرض فى أندونيسيا من الغزارة بحيث تستطيع الأسرة الواحدة أن تعيش على نتاج قطعة صغيرة من الأرض تقل عن متوسط ما يقوم بزراعته الفلاح الذى يستعمل الآلات فى الزراعة . وتنمو الزراعات فى تلك الأرض الاستوائية طول السنة حتى أنها قد تنتج ثلاثة حاصلات فى السنة .

وفى كل مكان فى تلك البلاد تجد أنواع النبات المختلفة ، ويعتبر الرز أهم طعام لدى الكثير من الأهالى، وأحواض الرز فى السهول وفى سفح الجبال من المناظر التى تسترعى النظر فى أندونيسيا . وينمو فيها جوز الهند بالملايين وكثيراً ما نرى البامبو والبابايا والموز .

وظلت أندونيسيا زمنا طويلا فى السنوات الأخيرة أكبر منتج للمطاط الطبيعى فى العالم ، وهو ينمو فى مزارع واسعة تملكها شركات . وتوجد أيضا مزارع لقصب السكر وزيت النخيل والدخان والبن والشاى والكنشونا (ويصنع منه الكينين الطبى) . ويأتى من أندونيسيا الفلفل الأسود وأنواع أخرى من التوابل سنرى فيما بعد أنها لعبت دورا هاما فى تاريخ البلاد . وتنتج أيضا التاپيوكا والرثان وخشب التيك والكابوك (المستعمل فى التنجيد) ، وتجد الفاكهة اللذيذة فى كل فصل من فصول السنة ومنها أنواع غير معروفة لدينا .

وفيما تحت الأرض نجد ثروة أكبر من ذلك ، والبترول هو أهم ثروة معدنية ، وهو من أكبر موارد دخل أندونيسيا من الخارج . ولكن يوجد أيضا الصفيح وبعض الفحم والبوكسيت (وهو مصدر الألومنيوم) وكمية أقل من الملح والمنجنيز والنيكل والذهب والفضة وغيرها من المعادن . والمعتقد أن بأندونيسيا موارد للحديد ربما تكون من نوع ردىء ولكنها لم تستثمر بعد .

وعلى شاطىء البحر — وهو من أطول الشواطىء فى العالم — وفى المياه البعيدة عن الشاطىء تستخرج أندونيسيا

منها ثروات المحيط ، كما أنها فضلا عن التجارة الناشئة عن صيد الأسماك على الشاطىء تقوم فى الداخل بتربية الأسماك ، وتعتبر هذه التربية أحد المنتجات . وتربى الأسماك فى أحواض خاصة « فسقية » أو مياه أحواض الرز بين محاصلات الحبوب .

واللون الأخضر هو اللون السائد على النظر منمقا بألوان الأزهار الزاهية والأشجار المزهرة ، وفى بعض الجهات نشاهد سقوف البيوت الحمراء بطوبها .

وتتنوع حياة النبات تنوعا عجيبا ، وتنمو الأزهار البرية متسلقة أشجار الغابات ، وفى جوانب الأفنية خلف المنازل فى المدن . وتنمو أعشاب كبيرة حتى تبلغ طول الأشجار و « البنيان » وهو نوع من التين يضع بذوره فى أحضان شجرة أخرى ثم يمتد الجذور إلى الأرض ثم ينتهى الأمر بموت الشجرة الأصلية ، تاركة شجرة التين نامية مرتفعة فى الهواء تسندها الجذور التى تدلت من جوانبها ، وتاركة مجوفات فى المسافة بينها . وهناك أنواع عجيبة من الأعناب تدعى « ليانا » تنمو فيبلغ عرضها عرض ذراع الإنسان وطولها مئات الأقدم .

وأكبر زهرة فى العالم وهى « الرفليسيه » تنمو فى أندونيسيا

ويمتد عرض زهرتها أحيانا إلى ثلاث أقدام . ويوجد فى الحديقة النباتية فى بوجور أزهار زنبق جميلة يبلغ عرضها أكثر من خمس أقدام .

وتساقط المطر كثيرا واستمرار الحرارة مما يجعل الأشياء خضراء فى الجزء الأكبر من البلاد ، وفى بعض الجهات لا يكون موسم جفاف ، ففى بلدة بوجور — وهى بلدة صغيرة على مقربة من مدينة جاكرتا — ينهمر المطر وترعد السماء أكثر من ثلاثمائة مرة فى السنة ، وفى بعض الأماكن يبلغ سقوط المطر مائة وستين بوصة فى السنة ، مع أن نيويورك التى يعد المطر فيها غزيرا يبلغ متوسطه ٤٢ بوصة[١].

إن استمرار تساقط المطر قد يصبح ضارا إذ أن قيام مستنقعات متسعة من أشجار المنجروف لا فائدة منه للانسان ، ثم أنه فضلا عن المستنقعات فإن الزرع ينمو فى سرعة حتى أنه

---

(١) يقل سقوط المطر فى العالم العربى عن عشر بوصات سنويا ، فيما عدا شمال العراق فتصل النسبة إلى عشرين بوصة فى العام وعلى ساحل شرق البحر المتوسط إذ قد تصل النسبة إلى ثلاثين بوصة سنويا .

إذا لم تستمر الجهود بلا انقطاع تعود الأرض التى أعـــد
للاستفادة بزراعتها سريعا فترتد غابات . على أن فى جز
من أندونيسيا نجد المطر مناسبا تماما ، وفى تلك الأماكن كما
جزيرة جاوة نجد خصبا لا يكاد يصدق ، فيه نفع للناس .

ولما كان البحر قريبا من الأرض فإن مقياس الحرارة أ
ممـا تنتظره فى البلاد الواقعة على خط الاستواء ؛ فى مد
جاكرتا لم تزد الحرارة فى ثمانين سنة حسب المقياس عن .
درجة ، والمتوسط نحو ٨٠ درجة ، ومع ذلك فإن الزائر الأج
لا يكاد يحتمل الحرارة المتبخرة فى المساحات المنخفضة عنا
يقابلها لأول مرة . فالرطوبة فى الصباح والمساء تـكاد تـكو
دائما نحو ٩٠ درجة ، على أن الحرارة والرطوبة فى الأما
المرتفعة أقل من ذلك وأكثر إنعاشا .

ووقوع أندونيسيا على خط الاستواء ممـا يجعل الحرا
متساوية تقريبا فى المـكان الواحد على مدار السنة ، وفى أقسا
كثيرة لا نجد فرقا بين أحر الشهور وأبردها غير ثلاث درجات
والتغيرات الموسمية فى الجو أقل من التغيرات التى تنشأ عن
الارتفاع فوق مستوى البحر ، فنرى مقياس الحرارة ينزل در
فى كل ارتفاع ثلاثمائة قدم فوق البحر .

كذلك بسبب مركز أندونيسيا فى خط الاستواء نجد فرقا أقل من ساعة بين أطول الأيام وأقصرها فى السنة ، على حين نجد هـــذا الفرق ست ساعات فى خط العرض الذى تقع عليه مدينة نيويورك[١] .

والأرض غنية ، لا سيا فى بعض الجزر ، ومع ذلك تجد الناس فقراء جداً بالنسبة لكثرة عددهم . ومن الصعب أن نعرف تماماً دخل الشخص فى دول مثل أندونيسيا حيث يكون الطعام المنزلى أهم بكثير للأسر العديدة من الدخل الذى يأتى فى شكل نقود ، ولكن مع إدخال هذا العامل فى تقديرنا فإن أهل أندونيسيا من أفقر الشعوب فى العالم ، وتقدر الدراسات المختلفة متوسط الدخل للأندونيسى بين ١٥ ، ٤٠ دولاراً فى السنا بأجمعها .

ويظن بعض الناس أن الموقف سيزداد سوءاً بسبب استمرار الزيادة فى عدد السكان ، ويأمل آخرون أنه إذا حلت المشكلات السياسية سيحدث توازن بين نمو عدد السكان وازدياد

(١) الفرق بين أطول الايام وأقصرها فى خط عرض ٥٣٠ خط القاهرة والكويت والبصرة وعبدان يقل قليلا عن ثلاث ساعات .

موارد الطعام وتصير الحياة خيراً مما هي عليه آلاف المرات ، وهؤلاء يعلقون آمالهم على إنماء الأرض القحلة، وتحسين استغلال الحاصلات لا سيما الأرز ، ثم زيادة نمو الأسماك وبناء الصناعات بمساعدة الكهربا من قوة المياه ، كذلك تحول السكان إلى الهجرة فى الجزر التى لا تغص بالسكان ، ثم فى العمل على انخفاض السرعة فى زيادة عدد السكان .

ومركز الحياة الوطنية فى أندونيسيا نجده فى الجزيرة البارده جاوة ، وتعتبر جزيرة مادورا الصغيرة عادة مشتركة فى ذلك معها ، ففى مساحة قدرها ٥١ ألف ميل مربع ، أى نحو ٧ ٪ من مساحة الأراضى الأندونيسية يعيش ٥٥ مليون نسمة أى نحو ٦٠ ٪ من جملة سكان أندونيسيا .

ويعيش نحو ثمانية وخمسين مليوناً من الأنفس على جزيرتى جاوة ومادورا ، وهما من خير المواقع التى زرعت زراعة متقدمة فى العالم ؛ فقد ساعدت وسائل الرى المتقدمة كرم الطبيعة فيها ، حتى أن الأرض صارت تقيم أود أكثر من ١١٠٠ شخص فى الميل المربع ، ويمكننا أن نقارن هذا العدد ، بالولايات المتحدة ، فهو ٥٠ شخصاً للميل المربع و ١٥٠

فى أندونيسيا عامة ، وليس أكثر من ٣٥٠ فى الهند ، مع أنها للأسف مكتظة بالسكان(١).

وشأن السكان فى أندونيسيا شأنهم فى جميع البلاد ؛ أى أنهم أهم ما يسترعى النظر فيها ، فهم قوم أشداء جذابون ذوو بشرة سمراء ، وهم أذكياء ومثابرون على العمل (عندما يجدون فيه فائدة) . وهم بطبيعتهم ظرفاء متحملون صبورون جدا جدا . والواقع أنه ـ كما سنرى فيما بعد ـ لولا صفة الصبر العجيبة فيهم لما عاشت البلاد بالرغم من متاعبها السياسية التى يظهر أنها لا تنتهى .

وغالبية الناس من جنس يدعى الأندونيسى أو الملايو ، ولكن فيه مزيجا بالدم الهندى كما أن فيه مزيجا من الصينى والعربى والأوربى .

وأكثر من تسعة أعشار السكان مسلمون فى الدين ، أى أنهم من أتباع النبى العربى محمد رسول الإسلام ، وقد انتقلت تعاليم القرآن الكريم إلى تلك البلاد البعيدة عن طريق السفن

(١) وهذه النسبة ٥٧ شخصا للميل المربع فى الجمهورية العربية المتحدة و ١٦٩١ للميل المربع لو قصرت النسبه على المناطق الزراعية والمأهولة بالسكان و ٣٤ للميل المربع فى الكويت . و ٣٧٩ للميل المربع فى لبنان . و ٣٨ فى العراق و ٢٤٧ فى الأردن .

التجارية فى العصور الماضية ، ولكن تعاليم الديانات الهندية والبوذية وديانات أقدم من هذين لا تزال قوية ، ونجد النفوذ الغربى عن طريق البرتغاليين والبريطانيين والهولنديين . وفى الأزمنة الحديثة عن طريق الأوربيين الآخرين والأمريكيين ماثلا فى الدين والتربية والتجارة والعلوم ، ونجده بارزاً أيضا على الأقل بالمدن فى تفاصيل الحياة اليومية مثل السينما واستعمال د . د . ت وأحمر الشفاه وشراب الكوكا كولا .

وطريقة الحياة عند أهل أندونيسيا متنوعة تنوعا كبيرا ؛ فى مدينة جاكرتا العاصمة ــ وتعداد سكانها أكثر من ثلاثة ملايين ــ نجد أناسا مثقفين يقرأون الصحف الأمريكية ويستمعون إلى الموسيقى الكلاسيكية الأوربية على أحدث آلات الاستماع الدقيقة ، ويتحدثون عرضاً عن آخر زياراتهم لشيكاجو أو باريس أو لندن .

وأمام ذلك نجد فى جزيرة بورنيو قبائل لم تكد تخطو خطوات قليلة من العصر الحجرى ، وهى تعيش بأقدم وسائل الزراعة البدائية وصيد الحيوان والأسماك .

فالسبب وجيه فى أن البلاد اتخذت شعاراً هذه الكلمات الوطنية « بنيكا تنجال ايكا » ومعناها « الاتحاد فى التنوع » وهو ما يوافق

شعار الأمريكيين « الوحدة من الكثرة » .

إن حب الاستقلال هو بلا ريب أعظم قوة تجمع أقسام البلاد معا ، والقوة الثانية هى العقيدة الإسلامية مع تحمل العقائد الأخرى ، ولكن هنالك ما يحتاج إلى الذكر خاصة — وهو أمر اللغة الوطنية .

يتكلم الناس فى حياة الأسرة والريف أكثر من مائتى لغة ، على أن لغة واحدة صارت مستعملة عامة كجزء من الحركة الاستقلالية .

وسنخوض فى هذا الموضوع فى الفصل الثانى عشر من الكتاب ، ولكن يجمل بالقارىء أن يعرف من الآن كيف يلفظ الكلمات الأندونيسية القليلة فى هذا الكتاب .

أكثر الحروف تنطق قريبة من نطقها الطبيعى ، ولكن هنالك أربع قواعد يحسن حفظها :

تنطق (J) مثل الباء .

وتنطق (Dj) مثل الجيم المعطشة .

وتنطق (Sj) مثل الشين .

وتنطق (Tj) مثل تش .

والهولنديون والأمريكان أحيانا فى هجائهم لاسم العاصمة يكتبونها هكذا فى لغتهم : Jakarta

ولكن ذلك يؤدى إلى نطقها عند الاندونيسيين ياكرتا ، ولذلك هم يكتبونها هكذا .Djakarta ، وهو الهجاء الذى نتبعه فى هذا الكتاب (استثناء من ذلك سنستعمل سومطرة وجاوة بدلا من النطق الاندونيسى سومطيرة وچاوة) .

وقد حلت اللغة الانجليزية محل الهولندية الرسمية بعد الاستقلال كلغة أجنبية وبذلك تنتشر المعرفة سريعا باللغة التى يتكلمها الأمريكيون بين المثقفين .

وعند الأندونيسيين شغف هائل بالتعليم ، فحرمان الأغلبية منه فى أثناء حكم البلاد الأخرى جعلهم متعلقين بالتعليم حين صارت أمور بلادهم فى أيديهم .

وقبل الاستقلال لم يكن يعرف القراءة والكتابة من الاندونيسيين سوى نحو سبعة فى المائة ، ولم يكن المتعلمون تعليما عالياً غير قلة منهم ، ولم يكن بين الشيوخ من الجيل القديم إلا قلة حصلوا على تعليم يؤهلهم للزعامة فى تلك الدولة الكبيرة ، ولذلك كان من الصعب تنظيم حياة الجمهورية وتسيير دفة عملها . ولذلك

يصر الشيوخ والشباب على أن يكون شاب العصر الحديث متعلما ومثقفا وله خبرة صناعية كما تقضى الحال .

أجل إن قلة كانوا يعرفون القراءة والكتابة ، ولكن كانت هنالك وسائل أخرى للحياة الثقافية على مر العصور ، وهذه الوسائل أكثر تعقيداً من مجرد القراءة والكتابة ، ولكنها لا تحتاج إلى التعليم فى فصول المدارس ، وهذه الوسائل هى الفنون العجيبة كالموسيقى والرقص والمسرح والنحت والتصوير والبناء وفن الصباغة المعروف باسم « الباتيك » ، وكل هذه الفنون استمرت على مر عصور الحكم الأجنبى .

وفى تاريخ أمريكا القديم كانت نهاية حرب الاستقلال بداية فترة صعبة فى تاريخها ، وكذلك الحال بالنسبة لأندونيسيا ، فقد صادفت صعاباً أخرى لم تعرفها أمريكا ، إذ أن ضغط السياسة العالمية الآن أكبر كثيرا فى هذا العصر .

لقد استطاعت الجمهورية أن تعيش بالرغم من المتاعب الكبيرة ، وكان ذلك موضع استغراب الكثير من دول العالم ، ولكن إلى الآن لم تخرج البلاد نظاما سياسياً مؤثرا ، وثابتا . فان تولى البلاد حكم نفسها ، هو دائماً أكثر صعوبة من التخلص من نير الأجنبى .

لقد تغلبت أندونيسيا على أزمة بعد أزمة ، ولنا الحق في أن نأمل بأنه مهما حدث في المستقبل القريب فإن هذه البلاد العجيبة ستتغلب في هدوء على جميع الصعاب ، فإن لها غرضا لامعا في المثل العليا لجمهوريتها ، والمبادىء الخمسة التي تتخذها رمزاً وشعارا للوطن ، وهي : الوطنية ، وسيادة الأمة ، والانسانية أو الصلة الدولية ، والعدالة الاجتماعية ، والاعتقاد في الله .

ولكي نقف على تاريخ تلك البلاد الخضراء وما قامت به البلاد من أعمال ، والمصاعب التي اعترضتها وآمال الشعب فيها يجب أن نعود لبداية تاريخها ، ولكن يجمل بنا أن نمر سريعا بجغرافيتها ، فذلك مما يساعدنا على فهم القصة عندما تتجلى أمامنا.

الفصل الثانى

جزر فى البحر

يقسم الجغرافيون على الخرائط آلاف الجزر التى يتألف منها الأرخبيل الأندونيسى تقسيما مختلفا ، ولعل أسهل تقسيم لنا هو أن نقسمها إلى أربع مجموعات :

١ — الجزر الغربية وهما سومطره وبورنيو وجاوة .

٢ — الجزر الصغرى فى مجموعة سوندا وهى سلسلة تمتد من شرق جاوة نحو استراليا .

٣ — الجزر الشرقية وهى تشمل سليبس ومجموعة جزر ملقا التى تمتد حتى الفلبين .

٤ — نيوجينى الغربيـــة التى يتنازعها الأندونيسيون مع الهولنديين الذين يحتلونها الآن .

وبين هـذه المجموعات الكبرى نرى اختلافاً فى النباتات والحيوانات والأرض والسكان والثقافة العامة. وفيما تحت الأرض وتحت البحار نرى دلائل الاختلاف فى التاريخ الجيولوجى .

فالجزر فى الغرب وهى سومطرة وجاوة وبورنيو واقعة فى بحار غير عميقة لايزيد عمقها أحياناً عن مئتى قدم . والكثير من الأراضى فى هذه الجزر تتخللها المياه والمستنقعات وهـــذا يؤيد ما يؤكده الجيولوجيون من أن هذه الجزر الغربية الكبرى كانت جزءاً من أرض القارة الآسيوية من مدة لاتتجاوز آلاف السنين ، والواقع أن هذا القسم من اندونيسيا يمكن اعتباره إلى الآن قسما من القارة ، ولو أن بعضه غطته بضع مئات الأقدام من الماء .

أما الجزر إلى الشرق من هذا الاطار القارى فانما هى قمم الجبال الوعرة جداً التى ترتفع من أغوار البحار الشديدة العمق وفى بعض الاحوال نجد فرقاً فى الارتفاع نحو ثلاثين ألف قدم بين عمق المحيط وبين قمة جبل لا يبعد عنه أكثر من مائة ميل . فهذه المنطقة من الوجهة الجيولوجية تعتبر حديثة العهد ولا تزال الجبال تنمو فيها وتحدث الزلازل فى تلك المنطقة كثيراً وتجرى فيها هزات خفيفة مرتين أو ثلاثا فى كل يوم فضلا عن هزات عنيفة بين فترات .

ونجد البراكين على خط كبير فى شكل الهلال ، يمتد طوال سومطرة وجاوة ثم يمتد شمالا إلى الفليبين . وفى البلاد أكثر

من مائة بركان ناشط منها نحو النصف فى جاوه ، وعدد لا يحصى من البراكين الخامدة من الأزمنة الماضية . وفى طرف سومطرة جنوباً توجد جزيرة هى كل ما بقى من بركان من أشهر براكين العالم ، وهو بركان كراكتوا الذى ثار وتفجر سنة ١٨٨٣ فدمر الكثير من أجزاء الجزيرة وسبب موجات مد ، وسحبا من التراب دارت حول العالم ، وثار البركان ثورة جديدة فى سنة ١٩٢٨ فكوّن جزيرة صغيرة من الحمم سميت أناك كراكتو (أى طفلة كراكتوا) .

أن البراكين لها تأثير كبير حتى أننا نهتم بها لذاتها ، ولكنها كذلك تعطينا مفتاح الحياة بأجمعها فى إندونيسيا ، وتخرج البراكين نوعين من الحمم : النوع الذى يسمى الحمضى وهو الذى تتسبب عنه الاراضى القاحلة التى لا تصلح مطلقاً لزراعة الاشياء ، ثم هنالك الحمم المركزى وهو الذى يغنى الارض فتنمو فيها الحاصلات .

فالانتاج العجيب لأراضى جاوة وأجزاء من الجزر الاخرى إنما هو ناشىء عن طبقات عميقة من التربة البركانية فضلا عن الامطار المستمرة والحرارة ، وأغنى المساحات فى الزراعة تصير عادة أكثر الجهات ثقافة وأقواها سياسيا ، إذن

نستطيع أن نقول بأن القوة العظيمة للبراكين فى ثورانها ليست خسارة للبلد ، بل هى تؤثر فى حياة الناس مدة قرون حتى بعد أن تبرد البراكين وتهدأ .

والمظاهر الاساسية للمناظر فى اندونيسيا غير التغييرات التى أجراها الانسان هى الجبال ، و « غابات المطر » الاستوائية التى تظل كما هى طول السنة ، وعدد قليل من « غابات الرياح الموسمية » التى تهب ولكن تتغير فى فصول ، وفى « غابات المستنقعات » على خطوط السواحل المسطحة ، وأحياناً تمتد بعيــداً فى الداخل ، ومساحات الاراضى ذات الحشائش أو ما يسمى « السافنا » . وهــذه الاراضى الاخيرة هى أراضى مسطحة فيهــا أشجار وزراعة قليلة ليست إلا أعشابا وحشائش عالية ، ومثل هــذه المساحات قليلة الفائدة بطبيعة الحال للانسان ، وهذا ما يمكن أن يقال عن مستنقعات الغابات .

ولمــا كانت جاوة مزدحمة بالسكان فقد بذلت جهود لحمل أهلها على الهجرة لغيرها من الجزر لا سيما لجزيرتى سومطرة وبورنيو ، وفيهما مساحات كثيرة خالية . ويظن أن بعض الاراضى البرية الخالية يمكن أن تستعمل بحيث تصلح لمعيشة الناس

كما حدث فى أجزاء من الصحراء الأمريكيـة فى الجنوب الغربى إذ حولت لاستعمال الناس . على أن الهجرة من جاوة ليست كبيرة جداً إلى الآن ولم تحل دون نمو زيادة السكان فى جاوة نفسها .

ولقد ذكرنا من قبل أن نسبة عدد السكان فيها تبلغ ١,١٠٠ فى المتر المربع وتبلغ كثافة السكان فى سومطرة نحو ٠,٧٨ وفى بورنيو ٠,١٨ .

ولنمر الآن حول الجزر التى يعيش فيها ٨٧ مليون أندونيسى ، مبتدئين بالركن الأعلى اليسارى فى الخريطة .

يبلغ طول سومطرة نحو ألف ميل ، وجانبها الغربى على مقربة من الشاطىء مكلل بالجبال ثم تنحدر إلى الجانب الشرقى حتى تصير أحراشاً ومستنقعات مع مساحات كثيرة واسعة اعتاد الإنسان أن يستعمها لفائدته مثل القسم المسمى ديلى على مقربة من مدينة «ميدان» حيث استطاع العلماء أن يزرعوا على الأرض التى كانت قحلة من قبل نوعاً من الدخان السومطرى ذى القيمة الكبيرة فى التجارة العالمية . والجانب الجنوبى من الجزيرة اتسعت فيه زراعة الرز الذى يروى بالماء كما فى جاوة ، وتوجد أيضاً فى سومطرة مزارع كبيرة للمطاط والسكر وغيرهما من المواد التجارية .

وهذه الجزيرة هى من أكبر مصادر البترول فى أندونيسيا ، وتوجد على مقربة من شواطئها جزر ، لاسيما بنجكا وبيليتون ، تصدر كميات كبيرة من القصدير .

ويوجد فى الجزيرة نحو ١٥ مليوناً من السكان وهم متنوعون جداً فى أجناسهم ؛ ففى الطرف الشمالى نجد أقوام عطشة ، وسنذكر استقلالهم العجيب من بعد ، ومن تحتهم يقيم البطاق الذين لهم ثقافة ولغة مختلفة ، والكثيرون منهم مسيحيون ، وفى منتصف الجزيرة إلى الجانب الغربى نجد شعب مينا نجكباو الممتاز الذى سنقابله ثانية فى هذا الكتاب ، وفى الطرف الجنوبى مزيج من الشعوب واللغات ومدن الجزيرة التى يزيد عدد سكانها عن مائتى ألف نفس هى ميدان وبالمبانج وبدانج .

وجزيرة بورنيو (التى يسميها الأندونيسيون كيلمنتان) ليس فيها الكثير من الجبال الشاهقة ولكنها مليئة بالتلال والغابات ، وتعتبر بورنيو الثالثة أكبر جزر العالم ، فهى بعد جرينلاند ونيوجينى . غير أن أندونيسيا لا تمتلكها بأكملها ، ففى الجانب الشمالى توجد ثلاث أملاك بريطانية : هى سراواك وبرونى (أى بورنيو) وبورنيو الشمالية ، ويوجد البترول

والمطاط فى الجانب البريطانى والأندونيسى من الجزيرة ، وفى الغرب توجد مساحة من الأراضى الزراعيـــة يستغلها قوم من سلالة الصينيين الذين وفدوا فى الأصل للعمل فى مناجم الذهب .

ولا يزيد عدد السكان فى أرض بورنيو الواسعة الأرجاء عن أربعة ملايين . وأكثر السكان فى شمال الجزيرة ووسطها من الداياك لهم لغة خاصة ويعيشون عيشة بدائية على صيد الحيوان والأسماك و « والزراعة المنتقلة » ، أى أنهم يعدون أرضاً ويزرعونها ويأخذون حاصلاتها بضع سنوات ثم ينتقلون إلى أراض أخرى إذ ينضب معينها بعد بضع سنوات . وأكبر المدن القليلة فى هذه الجزيرة هى مدينة بنجارماسين وعدد سكانها مائة وخمسة وسبعون ألفا .

ولا تعتبر جزيرة جاوة أغنى جزر أندونيسيا وأكثرها سكاناً فحسب (فعددهم ثمانية وخمسون مليونا بينهم مدورا) ، بل هى أنضر بلاد الأرض وأكثرها سكاناً ، وتخترق أرضها على طول الجزيرة سلسلة من الجبال البركانية ، وفى أقسام منها تجد الأرض قاحلة ، ولكن فى أماكن أخرى تجد مجموعة عجيبة

من مصاطب وزراعات السكر والشاى والبن والمطاط وغيرها من الحاصلات .

والأقوام الذين يسمون الجاويين ويستعملون اللغة الجاوية هم فى آخر الطرف الغربى من الجزيرة . وفى قسم كبير من ثلثى الجانب الشرقى ، وبين هذين القسمين توجد مساحة فى الغرب لا سيما عند مدينة باندونج حيث يسكنها السندانيون ، ويوجد الطرف الشرقى عند نهايته وعلى جزيرة مدورا — التى تشغل جزءا فى الشمال الشرقى لجاوة — أقوام المدوريين ، ولهم ثقافة خاصة ولغة خاصة .

وأهم مدن أندونيسيا الأربع تقع فى جزيرة جاوة . فمدينة جاكرتا (وكان يسميها الهولنديون باتافيا) هى العاصمة الوطنية ، وعدد سكانها يزيد على ثلاثة ملايين ، وهى من أكبر المدن فى العالم. وقد جذبت جاكرتا السكان، مثلها مثل الكثير من العواصم والمدن الكبرى كالقاهرة وبغداد ونيويورك ، من أجزاء أخرى فى البلاد ومن الخارج فصارت روحها متنوعة ذات مظهر عالمى وصارت لها ثقافة خاصة .

وينتقد كثيرون من الأندونيسيين والأجانب جاكرتا ويقولون أنهم لا يحبون الإقامة فيها كما يفعل الكثيرون من

الأمريكيين فى حديثهم عن نيويورك معتقدين أنها تمثل أسوأ مظاهر البلاد ، ولا ريب أننا نفتقد الصداقة والمجاملة والتغلب على مشكلات العيش فى هذه المدن العظيمة عما نجده فى المساحات الريفية أو المدن الصغيرة فى هاتين الدولتين . على أن أكبر مدينة بعد ذلك هى سورابايا ويسكنها أكثر من مليون نفس ، وهى واقعة فى الطرف الشرقى لجزيرة جاوة ، أما مدينة باندونج الظريفة التى نالت شهرة خاصة بسبب نذكره فى الفصل الأخير من هذا الكتاب ، فإن عدد سكانها يقرب من مليون ، وتعتبر مدينة سمرنج — وهى نحو النصف فى المساحة — رابعة المدن الكبيرة .

أما جوجاكرتا (التى يخطىء الأجانب فيخلطون بينها وبين جاكرتا) فهى أصغر من ذلك بعض الشيء ، على أنها هامة فى قصتنا إذ كانت عاصمة الجمهورية فى أثناء الثورة .

وإذا ذهبنا إلى الشرق من جاوة فإننا نصل إلى سلسلة جزر سوندا الصغرى ويسميها الأندونيسيون نوساتنجارا ، وأولها جزيرة بالى الجميلة ، ويرى الكثيرون من الناس أنها أقرب شبها بالجنة التى ستكون مصيرهم فى الآخرة . وهذا القسم من أندونيسيا هو الذى لا يزال يقيم فيه المحتنقون

للديانة الهندية ، وثقافة هذه البلاد الخاصة ومناظرها العجيبة جعلتها من أحب البلاد وأجذبها للسائحين فى الشرق الأقصى . وسنرى فى فصول قادمة أن البناء والموسيقى والرقص والثياب والنحت والأقمشة فى جزيرة بالى لها شهرة فى أنحاء العالم .

وإذا سرنا فى السلسلة شرقا من بالى فإننا نصل إلى لومبوك وسمباوا وسمبا وفالوريس وتيمور وجزر عديدة أصغر من هذه الجزر ، والنصف الشرقى من تيمور يمتلكه البرتغاليون وهو البقية الباقية من جزر الهند من الاستعمار البرتغالى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ولا توجد مدن كبيرة فى سلسلة سوندا الصغرى وعدد سكانها أقل من ستة ملايين .

وأكبر جزيرة فى المجموعة الواقعة فى الركن الشمالى الشرقى من البلاد هى سلبيس التى يسميها الأندونيسيون سلاويزى وهى من أغرب الجزر الكبيرة فى العالم فى شكلها ويرى بعض الناس أنها مثل خيلة الأزهار فى منظرها فإن لها أيديا ممتدة فى اتجاهات غريبة حتى لقد ظل أوائل التجار الأوربيين سنوات عديدة يعتقدون أنها مجموعة من الجزر لا جزيرة

واحدة . وهى كثيرة الجبال ، وتوجد فيها أنواع من النبات والحيوان لا توجد فى بلاد أخرى من بلاد العالم ، وأهم مدنها مدينة مكسار على الذراع الجنوبية الغربية ، وكانت ذات مرة مركز تهريب العطور ، ويبلغ مجموع سكان سلبيس ستة ملايين ونصف مليون .

وأكبر جزيرة من جزر ملوكو — وهى جزر التوابل فى الأزمان الماضية — هى جزيرة هالماهيرا ، وهى فى غرابة شكلها مثل سلبيس ، ومنها جزيرة سيرام وعلى مقربة منها جزيرة أصغر منها هى أمبون ولكنها أهم تاريخيا حتى فى عهد الاحتلال الهولندى الأخير ، إذ كانت مركز قاعدة بحرية هامة احتلها اليابانيون وتعداد سكان جزر ملوكو أقل من مليون .

وقد نزلت فيها البعثات التبشيرية المسيحية منذ زمن بعيد جداً ولها تأثير فى الحياة الثقافية فى الجزيرة ، وقد تطور الفن الشعبي فى الجزر التى اعتنقت المسيحية وضاعت بعض الطرق التقليدية فى الموسيقى والرقص ومع ذلك فانه بالرغم من طول فترة النفوذ المسيحى فان ذلك لم يمح الكثير من العادات والاعتقادات المعروفة .

والقسم الأخير من الأرخبيل الذى يسميه الاندونيسيون ايريان هو النصف الغربى من غينيا الجديدة ، أما الجانب الشرقى فتستولى عليه استراليا . وفى معاهدة سنة ١٩٤٩ بشأن الجزر الأخرى لم تستطع هولندة واندونيسيا الاتفاق على ما إذا كانت غينيا الجديدة تصبح قسما من أندونيسيا ، فأجلت هذه المسألة إلى اتفاق آخر فيما بعد ، وظلت هولندة تحتل هذه المساحة . ولكن اندونيسيا ظلت تشكو إلى الأمم المتحدة وغيرها ، ورفضت هولندة المفاوضة وان أخبرت الأمم المتحدة فى سنة ١٩٦٠ أنها تقبل استفتاء أهل غينيا الجديدة .

والاسم الذى يطلقه الاندونيسيون عادة على بلدهم العظيم هو « تانا اركيتا » ، أى « أرضنا ومياهنا » . وبهذا نكون قد ألقينا نظرة سريعة على هذه المساحة الواسعة من الجزر والبحار ، وتتحول الآن إلى تاريخها .

الفصل الثالث

من البداية

قصة نشأة الانسان فى اندونيسيا من أقدم القصص فى العالم ، وقد يرجع عهدها إلى آلاف السنين قبل أن يكتب التاريخ . ومنذ البداية الأولى تقريبا نجد فيها علامات على بعض الخصائص التى توجد فى اندونيسيا اليوم .

أن جنوب آسيا الشرقى — وهو المنطقة التى نرى فيها اندونيسيا من أكبر وأهم دولها — لم يلعب عادة فى أمور العالم الدور الكبير الذى هو من حقه ولكنه ظل لعدة قرون ملتقى الأجناس والثقافات واللغات والتجارة ، وكانت الحرب العظمى الثانية واحدة من أحداث كثيرة قاتلت فيها القوات الحربية من خارج المنطقة فى جنوب آسيا الشرقى .

أن التجارة هى مفتاح هذه القصة ؛ فالتاجر الأمريكى الذى يذهب إلى تلك الأصقاع ليبيع البنسلين أو يشترى المطاط أو القصدير . والتاجر الألمانى الذى يبيع السيارات أو يشترى الشاى إنما هما يعملان عملا ظل آلاف السنين ، فالاتصال عن

طريق التجارة الأجنبية هو الذى يفسر الغنى والتنوع فى الثقافة الأندونيسية .

كيف ابتدأ هذا ؟ لا أحد يعرف تماماً كيف بدأ ظهور الانسان على الأرض والخطوات الأولى فى التطور التى خرج منها الانسان المسمى علمياً « هومو سابينز Homo Sapiens » وأين كان ذلك ؟ ولا يؤكد العلماء الآن — كما كانوا يفعلون — أن فى آسيا كانت نشأة الانسان . ولكن من المحتمل أن جنوب آسيا الشرقى الاستوائى هو على الأقل أحد الأماكن التى حدث فيها التطور العظيم .

أن أحد المشتركين فى قصة الانسان الأول له اسم اندونيسى ولعل « إنسان جاوة » الذى وجدت رفاته المتحجرة فى سنة ١٨٩١ هو من أوائل الأنواع السابقة على تكوين الانسان الاول المعروفة باسم بيثكانثروبوس ايركتوس « Pithecanthropus Erectus » .

ولما زادت المعلومات العلمية ، ووجدت بقايا أنواع أخرى فى جاوة وفى غيرها من جزر وقفنا على الكثير من أمر هذه المخلوقات الاولى وعن البشر الذين نشأوا من بعدهم ؛ وأن اندونيسيا لهى مورد غزير الفائدة فى الفصل الاول من قصة الانسان .

إن الأندونيسين الحديثين ليسوا من نسل هذه المخلوقات الأولى الذين هم أول سكان تلك البلاد ، ولكنهم أناس جاءوا من الخارج بعد آلاف السنين . فقــد ظهر بدراسة آثار بقايا الإنسان المتحجرة وبعض الأدوات القديمة وغيرها من آثار الثقافة أنه حدثت هجرات كثيرة إليها .

وأن بين هذه الموجات تركت واحدة أكبر عدد من الناس الذين يعيش نسلهم الآن . وكان أهلها يسمون الأندونيسيين .

والمعتقد أن أقدم هؤلاء الأقوام وفدوا من جنوب غرب الصين ، وأنهم هاجروا منذ أربعة آلاف سنة إلى الأرض التى تسمى الآن بالأرخبيل الأندونيسى . ويرى العلماء أن هؤلاء الأندونيسيين القدماء يؤلفون نوعين من الناس يسمى النوع الثانى أهل شواطىء الملايو وقد سكنوا على الشاطىء . أما النوع الأول السابق عليه فقد فضل الإقامة فى المرتفعات إلى الداخل .

وتستعمل كلمة الأندونيسى أو الملايو للنوعين بمعنى واحد ، وهـذا هو نوع الجنس الذى نجده كثيراً الآن فى جنوب آسيا الشرقى .

ولابد أن كانت هناك بعض العلاقة بين الأندونيسيين القدماء والمنغوليين الذى نجدهم فى الصين ، وهنالك ما يدل على وجود الاتصال التجارى بين الصين وبلاد أندونيسيا الحاضرة على الأقل منذ ١٠٠ سنة قبل الميلاد .

على أن الهند أهم فى التاريخ الأندونيسى من الصين وتأثيرها أقوى وأشد أثرا ، فمنذ زمن التجارة مع الصين ، بل قبل ذلك فى رأى بعض الخبراء ، قامت التجارة مع الهند وربما كانت هنالك مستعمرات لمستعمرين من الهند . ومنذ وقت بعيد كان يذهب التجار من الهنود إلى الجزر للبحث عن الذهب والفضة والقصدير ثم قرر البعض منهم أخيرا الإقامة الدائمة فيها .

ولا توجد كتب تاريخ رسمية يعتمد عليها فى تقرير هذا الاتصال ، لذلك يلجأ الباحثون إلى مصادر أخرى، فلا تستخلص الدلائل التى تؤيد ذلك فقط من الكتابات الهندية على الآثار الحجرية فى جاوة وسومطرة ، بل بما ورد فى الأدب الهندى القديم جداً من إشارات يرجح أن يكون المقصود بها الجزر .

ولا نصل إلى القرنين السابع والثامن بعد الميلاد حتى نجد دويلات تألفت فى سومطرة وجاوة ذات علاقة بالهند ، وقد

ظلت هذه الحضارة الهندية الأندونيسية تتقدم فى ثبات نحو سبعة قرون إلى الزمن الذى تحول الأندونيسيون فيه إلى الإسلام . والواقع أن التأثير الهندى الأندونيسى لم يختف بانتشار الإسلام ولا يزال واضحاً ويرى فى وجهات كثيرة من الحياة الأندونيسية إلى اليوم . والاسم الذى يطلق على هذه الحضارة هو أنها هندية جاوية ، لأن جاوة كانت مركزها ولكنها امتدت منها إلى جميع الجزر .

ولم يأت التجار والمستوطنون بالديانة الهندوسية فقط ، بل أتوا كذلك بالبوذية ، وأتى التجار الصينيون — وهم أقل عدداً — بتأثيرات الديانة البوذية أيضاً . وقد هب فى وسط جاوة فى القرنين الثامن والتاسع نشاط فنى كبير فى عهد الملوك الذين يعرفون بالشايلندرا ، وكذلك فن البناء من أهم الفنون التى برع فيها الجاويون ، ولاتزال البوذية تذكر إلى اليوم بفضل الأبنية العظيمة الباقية .

ويرجح أن يكون معبد بوروبدور العظيم فى جاوة — وهو أكبر الآثار فى أندونيسيا — من ذلك العهد ، ومنه يشعر المتفرج الحديث بقوة ما كان لهذا الدين من أثر فى حياة جاوة .

ولكن يجب ألا نظن أن وسط جاوة بأكمله صار بوذيا ، فالخطوط بين الحضارات والأديان ظلت دائماً غير محددة فى جميع عصور تاريخ أندونيسيا ، وظلت المعتقدات والعادات القديمة قائمة فى الجزر الهندية مهما كان الدين الرسمى فيها، فكل دين جديد يتخذ لوناً من الدين القديم ، وكانت العقيدة القديمة حيث تستمر ، تتعدل لتشمل جزءاً من الطقوس الجديدة أو المعتقدات .

والتاريخ السياسى لهذه الجزر مختلط وممتزج ؛ ففى احدى الجهات تنشأ دولة وتتولى السلطة ، ثم تتغلب على بعض الأراضى المجاورة ، ثم بعد ذلك تختفى أو تنضم إلى دولة كبيرة . والكثير من الملوك لم يكونوا غير رؤساء قبائل ، ولم تكن دولهم إلا قبائل استطاعت أن تفرض قوتها على مناطق مجاورة بعض الوقت ، وبعض الممالك — لا سيما فى جاوة وفى الجزر الواقعة على خليج ملقا — استمرت لفترة طويلة وكان لها تأثير فى بعض أراضى آسيا فضلا عن الجزر ، وكان لها المظهر والاحتفال المعقد الذى نجده فى بلاط الملوك فى الأساطير .

ومن الملوك القدماء الذين يستحقون الذكر فى هذا العرض المختصر الملك أرلنجا فى شرق جاوة وهو من ملوك القرن

الحادى عشر واسمه معروف للآن فى أندونيسيا ولو أنه حكم قبل احتلال النورمان لبريطانيا بقليل ، ويروى الشعب الأساطير عنه ويسميه الغربيون الملك آرثر الأندونيسى .

وقد أطلق اسمه على إحدى الجامعات الكبرى فى أندونيسيا اليوم ، وأطلق على جامعة أخرى شهيرة اسم رجل من رجالات القرن الرابع عشر وهو جاجا ماذا رئيس وزراء مملكة مجاباهت ، وكان من أوائل السياسيين فى أندونيسيا يتصرف كما لو كان فى العصر الحديث ، فكان يحلم بأن تكون الجزر دولة واحدة ، واستطاع فى الواقع أن يدخل قسما كبيرا تحت حكم مليكه .

ونرى فى تكوين امبراطورية مجا باهت — وكانت أكبر دولة أندونيسية إلى أن ولدت الجمهورية بعد ستة قرون ونصف قرن — مثالا معروفا لدينا على تدخل الدول الأجنبية فى أمور أندونيسيا ، فإن حوادث العالم حتى فى دول بعيدة كان لها تأثير كبير المرة بعد المرة فى تاريخ هذه الجزر ، وقد غير الضغط الأجنبى مجرى الحياة فى أندونيسيا عدة مرات . ونجد مثالا لذلك حتى فى ذاك الزمن البعيد قبل قدوم أوائل الأوربيين .

كان قبلاى خان ، المعروف فى الأساطير ، ملك الصين يحكم جزءا كبيرا من أرض آسيا من بلاطه العظيم فى بكين حين بدأ فى أواخر القرن الثالث عشر يزحف نحو الجنوب فى حركة كانت القرون التالية تسميها « التوسع الاستعمارى » ففتح أمما ، وخشيت أمم أخرى بأسه فخضعت له ، وجعل منها دولا تابعة ، وسقطت تحت سيطرته دولة بعد أخرى .

على أن كرتانا جارا — أحد ملوك جاوة — أبى التسليم ، بل عمد فوق ذلك إلى مساعدة جار له ، ولم يكن قبلاى ليحتمل علامات هذا الاستقلال فأمر بالهجوم على هذه الدولة وجزيرتها .

وأمضى أكثر من سنتين فى الاستعداد لهذه المغامرة البحرية التى كانت أكبر عمل حربى وقع فى الجزيرة إلى ذاك الحين ، ويقال أنه سيّر مئات السفن وأكثر من عشرين ألفا من الجنود فى هذه الحملة .

على أن الحملة حين نفذت فى سنة ١٢٩٣ كان لها نتيجة غير منتظرة مطلقا . فقد مات الملك كرتانا جارا قبل وصول رجال الصين إلى جاوة ، فلم يستطع الغزاة تأديبه كما أرادوا ، ولكنهم

أقنعوا بالحيلة إلى مساعدة أحد المتقاتلين على تولى العرش الذى تركه الملك كرتانا جارا خاليا . غير أن المتقاتلين دفعوا بهم إلى موقف امتد فيه الجيش الكبير وتفرق فى الأرض وحاصرته قوات جاوة . ولم يمض وقت طويل حتى مل الصينيون القتال فى أرض أندونيسيا وانسحبت سفنهم ، وكانت النتيجة الوحيدة أنهم عملوا على قيام قوة امبراطورية ماجا باهت التى قادها غاجة مادا إلى العظمة ، ولم يكن لأوندونيسيا دائما مثل هذا التوفيق فى التخلص من غزاتها .

كان ذلك قبل حوالى سنة من غزو قبلاى لجزيرة جاوة حين زار أول أوربى إحدى الجزر الأخرى ، وهو ماركو بولو من أكبر وأشهر سياح العالم ، وكان عائدا مع أبيه من بلاط الخان العظيم فى الصين حين وصل إلى شمال جزيرة سومطرة .

وزيارة ماركو ليست هامة لدينا لأنه أول أوربى زار أندونيسيا فقط ، بل لأنه لاحظ أمرا نرى أنه ذو أهمية كبيرة فى مستقبل الجزر ؛ فقد كتب يقول أن أهل سومطرة وإن كانوا بصفة عامة وثنيين يعبدون الأصنام إلا أن الكثيرين من الذين يعيشون فى المدن الواقعة على البحر قد تحولوا إلى دين

دين محمد عن طريق التجار الشرقيين الذين يتعاملون كثيرا معهم .

وكان تجار الخليج الفارسى والبحر الأحمر — فضلا عن الهنود من المسلمين — يقومون بزيارة جزر الهند قبل ملاحظة ماركو بقرون ، وبمرور الوقت انتقل الكثيرون منهم واستوطنوا فيها . وهذا قول ينطبق بصفة خاصة على خليج ملقا الذى هو أكبر طريق للتجارة فى جنوب شرق آسيا .

وكانت الموانىء فى سومطرة وجاوة مراكز لتبادل السلع بين الشرق والغرب ، وكانت تتجر فى منتجات الصين فضلا عن منتجات الجزر ، ولكن الاتجار فى التوابل من جزر ملوكو الواقعة فى الجانب الشرقى من أندونيسيا اليوم كان يلقى نوعا من التهافت يشبه الهجوم على الذهب فى أمريكا .

كان القيام برحلة واحدة قد ينتج ربحا عظيما ، وأخذ الذوق الأوربى وذوق أهل الشرق الأدنى يتطلبان كميات أكثر وأكثر من القرنفل وجوز الطيب فضلا عن الأعشاب النادرة والأخشاب العطرة والزيوت التى تستخرج منها وبعض منتجات جزر ملوكو

يوجد فى الهند وغيرها من البلاد ، ولكن البعض الآخر لم يكن الناس عندئذ يعرفونه فى غير هذه الجزر .

كانت منتجات جزر التوابل تنقل إلى مراكز تجارية فى الهند ، ثم تحملها القوافل إلى أسواق الشرق الأدنى ، ثم إلى أوربا ، أو فى بعض الأحيان تنقل مباشرة إلى الموانىء العربية والفارسية دون استعمال الطريق البرى عبر الهند .

وكان من الطبيعى أن تكون أول مساحة انتشر فيها الإسلام هى التى رآها ماركو بولو على جوانب خليج ملقا ، وهو — كما يتبين من الخريطة — طريق مائى ضيق بين جزيرة سومطرة وشبه جزيرة ملايو ، وهو أقرب طريق إلى أرض آسيا ، وكل عابر يقصد جزر التوابل أو يريد الذهاب شمالا إلى الصين لا بد أن يقطع هذا الممر الذى هو خليج ملقا ماراً بتلك الجزيرة فى طرف شبه جزيرة ملايو حيث تقع الآن سنغافورة (على أن المدينة نفسها لم تنشأ إلا بعد قرون) .

ولما كان الحكام المحليون والأمراء قد اتخذوا الديانة الإسلامية دينا وآمنوا بالقرآن الكريم فقد تبعهم الشعب فى ذلك . وعلى عادة أهل أندونيسيا لم تنقطع صلة الناس بالماضى ، بل نرى مساجد أنشئت على الطراز الهندى الجاوى للمعابد كما نرى مقابر إسلامية عليها رموز هندية .

ولم تأت نهاية القرن الرابع عشر حتى كانت مملكة ملقا القوية على شاطىء الخليج مؤمنة بالعقيدة الإسلامية كل الإيمان ، وانتشرت هذه العقيدة فى سرعة إلى الكثير من الجزر فى القرن الخامس عشر ، ومن ذلك الوقت صار الإسلام دين الغالبية العظمى من أهل تلك الجزر بالرغم من قرون مضت فى اتصال بالمسيحيين ونفوذ البرتغاليين والهولنديين والبريطانيين . أما جزيرة بالى فقد احتفظت بالديانة الهندية بالرغم من كل شىء ، ويوجد بعض المسيحيين أيضاً ولكن الجزر بوجه عام ظلت بلاداً إسلامية منذ القرن الخامس عشر .

وبعد أن قبلت جزر الهند الإسلام ، وبينما كان الهنود والعرب والفرس منهمكين فى تجارة التوابل ، كانت أوربا الغربية على وشك أن تدخل عصر الاكتشافات ، وكان إيجاد طريق أقصر إلى جزر الهند (أى إلى ملوكو مصدر التوابل) من بين الأسباب الأساسية لقيام السياحات الخطرة التى قام بها الأسبان والبرتغاليون والانجليز . وأنا لنعرف إحدى النتائج التى جاءت مصادفة من وراء ذلك وهى اكتشافات أمريكا ، وكانت فكرة الابحار غرباً للوصول إلى الشرق فكرة صائبة تماما إلا أن أول اتصال مباشر بين أندونيسيا والسفن الأوربية جاء عن

طريق آخر هو سياحة السفن البرتغالية شرقا حول أفريقيا .

وكان الأمير البرتغالى المعروف فى القرن الخامس عشر باسم هنرى السائح قد درس السياحة والجغرافيا ، وليس ذلك فقط بل كان يشجع الاستكشافات ، وكانت السفن البرتغالية تدور حول الساحل الغـــربى لأفريقيا ، ثم بعد وفاة هنرى وصلت السفن شرقا حول رأس الرجاء الصالح ، ثم إلى جزيرة مدغشقر .

وأخيرا فى سنة ١٤٨٩ بقيادة فاسكو دا جاما عبرت المحيط الهندى ووصلت إلى الهند .

على أن الفـاتح الذى بسط سيطرة البرتغالى على المحيط الهندى وما وراءه كان ألفونسو دى ألبوكرك القائد البحرى والحاكم العظيم واسمه فى تاريخ الشرق مشهور كاسم كورتيز وبيزارو فى الغرب ، وقد أقام ألبوكرك قاعدة بحرية فى جوا على الشاطىء الغربى من الهند ، ومنها تولى فتح ملقا ، وهو الذى أدخل ضجيج اسم البرتغال فى تاريخ أندونيسيا .

وأخذت تتجمع جوانب مختلفة من تاريخ العالم ، فإن هجوم البوكرك على دولة ملقا لم يكن مجرد مغامرة تجارية ، بل كان

استمرارا للحروب الصليبية ، فقد كان المسيحيون فى الغرب يقاتلون العرب والأتراك فكان من الطبيعى والمعقول فى نظر هؤلاء المسلمين وإن كان يفصل بينهم وبين بنى دينهم نصف العالم .

ومهما كان السبب الدينى الذى اتخذه البرتغاليون ذريعة فإن غرضهم الحقيق كان الاستيلاء على جزر الهند وموارد ثروتها الأخرى ، ويؤدى الاستيلاء على « باب الضريبة » فى ملقا إلى السيطرة على تجارة جزر التوابل والتجارة البحرية للشرق الأقصى مع الهند والشرق الأدنى وأوربا .

وفى تلك الفترة — قبل وصول المهاجرين من بليموث إلى أمريكا على الجانب الآخر من العالم بمائة عام — كانت البرتغال أقوى دولة فى جزر الهند .

الفصل الرابع

قدوم اوروبا إلى جزر الهند

كان احتلال الموقع الإسلامى الحصين فى ملقا على الخليج مما منح البرتغاليين حق تناول ضريبة المرور كما أسلفنا ، ثم صاروا أيضا على مقربة من حدائق الفلفل الأسود فى سومطرة ، ولكن القرنفل وجوز الطيب فى ملوكو ظلا يبعدان عنهم ألفين وخمسمائة ميل .

(ولما كانت الأسماء متشابهة بين ملقا وملوكو فيجب أن نلاحظ الفرق بينهما ؛ فالأولى كانت دولة إسلامية وعاصمتها على شبه جزيرة ملايا لا تبعد كثيراً عن مدينة سنغافورة اليوم ، أما ملوكو فهى جزر فى شرق اندونيسيا وهى جزر التوابل ، كما أنها تنتج جميع القرنفل وجوز الطيب فى العالم) .

وارتكب البرتغاليون أخطاء من البداية ، فقد كانوا يكرهون المسلمين ولا يشعرون بغير الاحتقار نحو أهل الملايو والأندونيسيين ، وكان أول ما عملوه بعد استيلائهم على ملقا عملا

يثير جميع المسلمين . فقد بنوا حصناً بحجارة انتزعوها من القبور الإسلامية ثم أقدموا على إعدام سلسلة من الأهالى ثم أخذ زعيم البحرية فيما بعد يقوم بأعمال القرصنة العامة فى المحيط الهندى فترك هؤلاء المغامرون من البداية إلى النهاية ذكرى الخيانة والتوحش . ولقد أخطأ البريطانيون والهولنديون أيضاً أخطاء كلفتهم كثيرا ، ولكن تصرفات البرتغاليين كانت عادة بلا موجب ، فكان من جراء ذلك الكارثة السياسية لهم ، ثم خسروا فى النهاية كل تجارتهم تقريبا .

وما أن استولى البرتغاليون على ملقا حتى بدأوا يسيرون الحملات على جزر ملوكو ، وكانت فى هذه الجزر دولتان متسلطتان على تجارة التوابل هما ترناتى وتيدور ، وكانت الأخيرة منهما سهلة فى التعامل معها ، أما الأولى فشديدة التعصب على المسيحيين . ومن عجائب التاريخ أنه بالرغم من نزعة الصليبيين عند البرتغاليين أنهم أقدموا على نوع من التحالف مع دولة ترناتى المعروفة بعدائها للمسيحيين ، وفيها أيضا أقاموا أول قلعة لهم فى جزر التوابل .

على أن البرتغاليين لم يثبتوا جذورهم فى غير ملقا وملوكو من هذه الجزر ، ثم لم يلبثوا أن وقعوا فى مشكلات شديدة فان

العداوة بين الغزاة المسيحيين وأهل البلاد المسلمين زادت الأمور سوءا . وقد زار المبشر الكاثوليكى الشهير القديس فرانسيس زافييه جزر التوابل سنة ١٥٤٠ وأقام إرساليات دينية وتحولت جماعات كثيرة إلى المسيحية ، ولكن التحول إلى دين فى اندونيسيا يكون عادة مسألة سياسية أكثر منها مسألة عقيدة ، فان أحد الملوك المحليين ـ واضعاً نصب عينيه فائدة فى التعامل أو فائدة عسكرية ـ قد يرى من الحكمة أن يتخذ ديانة جديدة فيتحول معه رعاياه ، ولكن لا يعنى ذلك بالضرورة التحول من عاداتهم وعقائدهم كثيرا ، بل ربما يرجعون إلى دينهم الأول بعد سنوات قليلة .

ولقد ظلت جزيرة امبون فترة من الزمن مركزاً عسكريا ودينياً للبرتغاليين فى الجزر الشرقية ، ولكن فى اللحظة التى كانت فيها الدول الأوربية المنافسة تتقدم نحو هذه الجهات متاعب البرتغاليين مع الدول المحلية قد بلغت حد الأزمة ، وهبت الثورات على البرتغاليين وابتدأت حركات ضد المسيحيين وأخذت أمبراطورية البرتغال فى الشرق تهتز وتتفكك .

وافتتحت نهايتهـــا بمقتل ملك أندونيسى عظيم غدراً فى سنة ١٥٧٠ هو هارون سلطان ترناتى الذى كانت تمتد سلطته على

مساحة واسعة من الفلبين إلى الجنوب ، فقد قتل غدراً بالرغم من الترخيص له بحق المرور . وكان قسم ابنه بالانتقام من البرتغاليين والكراهية التى شعر بها الملوك الآخرون مما عجل النهاية .

كان البرتغاليون أول الأمم التى ظهرت فى جزر الهند ، ولكن غيرهم من الأوربيين لم يلبثوا أن لحقوا بهم ، فإن سفينتين من سفن ماجللان وهما : فيكتوريا وترنداد ، رستا فى جزيرة بورنيو وفى جزر ملوكو بعد موت قائدهما فى الفلبين .

وأثار ذلك مناقشة دولية عن حقوق الدول فى الشرق الأقصى ؛ إذ أصدر البابا أمره الشهير بتوزيع العالم بين أسبانيا والبرتغال ، وزعم البرتغاليون أن جزر الهند كلها من نصيبهم ، وأمل الأسبانيون فى أن يثبتوا حقوقهم المزعومة فأرسلوا أسطولا من سبع سفن ليبحر بالطريق الطويل حول الأرض عبر المحيط الأطلنطى ثم يدور حول جنوب أمريكا ويعبر المحيط الهادى . وأرسل كورتيز ثلاث سفن إضافية من قاعدته

فى المكسيك ، ولم تصل إلى الجزر الأندونيسية إلا سفينة واحدة من كل من المجموعتين . ولكن فى سنة ١٥٧١ كان الأسبان قد أتموا احتلال جزر الفلبين القريبة وثبتوا أقدامهم فيها فى الوقت الذى كانت فيه قوة البرتغاليين تضمحل فى جزر ملوكو .

ولقد استولت أسبانيا على بعض المواقع فى جزر ملوكو ولكنها لم تستطع تثبيت أقدامها فى غيرها من الجزر فى أندونيسيا . على أن توسع وتضاؤل تنافسها البحرى والتجارى مع غيرها من الدول الأوربية فى أرض أوروبا كان له تأثير كبير فى تاريخ جزر الهند .

وتبعت كل من انجلترا وهولندة البرتغاليين نحو جاذبية جزر التوابل ، وزار فرانسيس دريك — وهو من أشهر البحارة البريطانيين — المياه الأندونيسية قبل الأيام التى بلغ فيها أقصى مجده ، وتبعه انجليز آخرون ونشطت التجارة البريطانية . وسنرى فيما بعد أنه جاء وقت بعد ذلك بكثير كان لبريطانيا فيه سيطرة سياسية على الجـــزر ، ولكن الهزيمة التى أوقعها البريطانيون بالأسطول الأسبانى سنة ١٥٨٨ كان لها دور أهم من أى إجراء اتخذه البريطانيون فى الأرخبيل نفسه ؛ فبعد انهيار

السيطرة البحرية الإسبانية صارت السفن الهولندية الماكرة تستطيع أن تعبر البحار دون أن تخشى المتاعب من سادتها السابقين .

لم يعد طريق جزر الهند سرا فى نهاية القرن السادس عشر ، فقبل أن ترى جيمستاون وبليموث رجلا من البيض كان طريق البحر الذى اخترقه مجللان حول جنوب أمريكا معروفين تماما لدى الأوربيين . وقد أبحرت سفن من دول مختلفة إلى جزر الهند ومنها ، بل كان هنالك دليل كتبه هولندى اسمه فان لنشوتن ساح مع البرتغاليين فى الشرق .

ولم يقبل الناس على كتاب فان لنشوتن مثل إقبالهم عليه فى وسط البحارة فى هولندة ، وأبحرت الحملة الهولندية الأولى المؤلفة من أربع سفن قاصدة جزر الهند فى سنة ١٥٩٥ ، وفى السنة التالية زارت السفن سومطرة وجاوة وبالى ، وكانت الحملة الثانية تتألف من ثمانى سفن . وفى السنوات الخمس التالية قام بالرحلة خمس وستون سفينة .

لم تكن الاتصالا الأولى بين البرتغاليين والهولنديين غير ودية . بل فيها من المجاملة مايبعث الشكوك ، ولكن البرتغاليين

لم يكونوا متحمسين لاقتسام تلك الجائزة الثمينة التى هى جزر الهند مع الذين يأتون بعدهم من أوربا ، وكان من المنتظر أن تقوم بينهم حرب تجارية .

وأرسل أسطول حربى برتغالى من جوا وملقا وأمر بطرد السفن الهولندية من المحيط الهندى ، ولكن قويت لديهم الرغبة فى مهاجمة السفن والاستيلاء على ثروتها ، فلم يستطيعوا مقاومة هذه الرغبة ، وأخذ البرتغاليون يعتبرون كل سفينة غنيمة لهم ، ومنها سفن الممالك الجاوية .

وقابل الجاويون الخصوم بالمثل حتى أنهم شلوا الأسطول البرتغالى بحيث صار عاجزا عن وقف الحملة الهولندية التالية عند مجيئها . وفى الوقت الذى كان من المحتمل فيه أن تأتى نجدات برتغالية وأسبانية للمساعدة فى طرد الهولنديين كان البريطانيون على الجانب الآخر من العالم يحاصرون ميناء لشبونة . لقد انتهى يوم البرتغال وصار المستقبل للهولندين والبريطانيين ، ولو أن البرتغال ظلت متعلقة بملقا أربعين سنة أخرى .

وبالرغم من الأثر السيىء الذى تركته الحملة الهولندية الأولى فى بعض الأماكن فإن الأندونيسيين قابلوهم بوجه عام

مقابلة حسنة ، وكثيرا ما كانت العلاقات ودية فيها علامات على الثقة المتبادلة . والمثال على ذلك أن جماعة من الهولنديين معهم ذخيرة من المؤن ظلوا مقيمين فى جزر ملوكو بين زيارات الأسطول وأخذوا يقومون بأعمال تجارية سلمية دون حوادث مثيرة ، مع أنه لم يكن هنالك قوة تحميهم .

ظن الأندونيسيون أن الهولنديين حلفاء لهم أمام البرتغال ، وعلى كل حال رحبوا بالفرصة لوقوف الأوربيين بعضهم فى وجه بعض فى منافساتهم على التوابل وغيرها من مواد التجارة ، ولو أنهم رأوا ما يأتى به المستقبل لكانوا أقل تحمسا ، فإن الهولنديين عملوا على أن تكون قبضتهم فى احتكار تجارة التوابل أقوى كثيرا مما دار بمخيلة البرتغاليين . وكثيرا ما كان الاحتكار مصحوبا بصعوبات قاسية نحو أهل ملوكو . فلقد بدأ الهولنديون طريق السيطرة على جزر الهند بأكملها .

ولكن يجب القول مع ذلك أنه منذ بداية حكم الهولنديين إلى نهايته بعد ثلاثة قرون كان الهولنديون كثيرا ما يساعدون ويشجعون من الملوك المحليين . على أن هؤلاء الملوك كانوا يلعبون لعبة الهولنديين لأغراضهم الخاصة كالاستفادة ماليا ،

أو المحافظة على المظاهر الملكية ، أو لإبراز القوة أمام دولة منافسة ، ولم يكن فى ذلك مايؤخذ عليهم حسب معايير تلك الأزمان ، ولو أن صالح شعبهم لايشغل جزءاً من تفكيرهم . ونجد مثل هذا النموذج من تاريخ الاستعمار فى أجزاء كثير من العالم .

وإذا كان الأمريكيون يميلون إلى اتخاذ نغمة أخلاقية عالية فى حديثهم عن وقائع القرن السابع عشر على الجانب الآخر من المحيط الأطلسى فليذكروا أمثلة حدثت بعد ذلك بقليل كانت أقرب إليهم فى بلادهم . فإن سجل معاملات الرجل الأبيض فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مع هنود أمريكا الحمر لايترك مجالا للغضب من تصرفات الهولنديين فى ذاك الوقت ، أو تصرفات الملوك الوطنيين الذين أقدموا على عقد معاهدات غير حكيمة ليست فى صالح شعبهم .

وفى تلك المنافسة التى قامت فى الشرق كانت الدولتان الكاثوليكيتان أسبانيا والبرتغال عدوتين حربيتين معارضتين للهولنديين البروتستانتيين ، ولكن النضال الهام الدائم فى جزر الهند كان بين الهولنديين والبريطانيين أو بالأحرى ، بين شركة الهند الشرقية الهولندية وشركة الهندالشرقية البريطانية . وتكونت

كانوا لايقلون رغبة فى الكسب فإنهم يريدون طـــرد جميع المنافسين من هذه الجهات فلم تنجح المشاركة ، ولم ينجح البريطانيون كثيرا فى أن يظلوا قائمين بالأمر بمفردهم ، واستمرت بعض المواقع التجارية البريطانية ، ولكن تحول أكبر نشاطهم إلى الهند والعالم الجديد .

ومما يهم الأمريكيين ملاحظته أنه لايفصل غير بضع سنوات بين إجراءين برزا فى جانبين من العالم ، فإن بيتر ستوبفسانت ــ عندما سلم للبريطانيين فى نيويورك ــ أنهى المنافسة الهولندية فى القارة الأمريكية سنة ١٦٦٤ وفى سنة ١٦٨٢ تخلى البريطانيون عن بنتام أهم وآخر موقع لهم فى جزر الهند ، وبذلك تركوا الميدان مفتوحا أمام الهولنديين .

واستولى الهولنديون فى القرن السابع عشر تدريجا على مواقع أخرى فى الجزر ، فكانوا أحيانا يعاونون ملكا محليا على غريم ، وأحيانا يضمون الأراضى ضما ، وأحيانا يعقدون اتفاقا تجاريا ولكنهم دائما يتوسعون فى الأراضى التى تكون تحت سيطرتهم ، وحدث أن عاد البريطانيون إلى السيطرة

السياسية لمدة قصيرة وذلك كنتيجة بعيدة للثورة الفرنسية والحروب مع نابليون بعد قرن من الزمان ، ودخل القسم الشمالى من جزيرة بورنيو تحت دائرة نفوذهم ، وكذلك استمر البرتغاليون يستولون على قسم من شرق جزيرة تيمور فى أقصى الجنوب الشرقى منها . وفيما عدا هذه الاستثناءات كان مقدرا على أندونيسيا أن تصبح من الأملاك الهولندية لثلاثة قرون — إلى زمن الغزو اليابانى فى سنة ١٩٤٢ إبان الحرب العالمية الثانية .

الفصل الخامس

امبراطورية هولندة

القرن السابع عشر هو العصر الذهبي لهولندة ، وهو جدير بهذا الوصف فى تلك الفترة لغنى الحياة الثقافية فيها لاسيما عظمتها فى المصورين مثل رامبران وفيرمير وفرانز هالز ، وكان عصرا ذهبيا فى الثراء المادى أيضا .

والفضل فى أكثر هذا الثراء لجماعة صغيرة من الرجال فى باتافيا وغيرها من الموانىء على الجانب الآخر من العالم ، ولرجال البحر الأشداء الذين شقوا طريقهم حول أفريقيا وعبر المحيط الهادى ، إذ كانوا يبنون إمبراطورية تبلغ مساحتها خمسين مرة مساحة وطنهم ، وظلت مدة طويلة مركز الاقتصاد الهولندى .

كانت الحياة صعبة لدى هؤلاء المستعمرين الأوائل ، ولو كان هذا الكتاب عن هولندة بدلا من أندونيسيا لقلنا الكثير عن حياة الشدة التى لاقاها الهولنديون على حدود الغابات الاستوائية ؛ فهنالك قصص محزنة عن القسوة والكبرياء والخيانة

والأنانية ، ولكن هنالك أيضا قصص البطولة والرقة والإحسان، وفى صور هؤلاء الرجال البعيدين جدا عن وطنهم مظهر الحرارة والشفقة وهم يحاولون أن يبنوا قطعة صغيرة من هولندة على جانبى قناة بتافيا .

وأخيرا ثبتت أقدامهم فى البلاد حتى ظنوا أنها ملك لهم لا للأندونيسيين الذين يزيد عددهم عليهم بنسبة (٢٥٠) لكل واحد من الهولنديين . ولم يكن شأن الهولنديين شأن المستعمرين البريطانيين الذين قضوا حياتهم فى آسيا ، ومع ذلك ظلوا يحلمون بفطائر البرقوق والحوارى الضيقة والريف البريطانى فى وطنهم . كانت أندونيسيا هى وطن الكثيرين من الهولنديين . وحين كسبت أندونيسيا استقلالها كانت هنالك بعض الأسر الهولندية التى عاشت قرنا أو نحو ذلك فى جزر الهند أطول من أية أسرة بريطانيا عاشت بأمريكا فى غرب نهر المسيسبى . ونجد بين الهولنديين كثيرين يخبرونك فى فخر أنهم ولدوا فى بتافيا أو باندونج أو سرابايا بنفس التحمس لبلدة النشأة التى يخبرك بها غيرهم أنه ولد فى امستردام أو لاهاى ، فالمرارة لخسارة « موطنه » للأندونيسيين تكون مفهومة أكثر لدى مثل هذا الهولندى ،

لأنها تختلط بذكرياته وعواطفه ، وهو فخور — وبحق — بما عمله الهولنديون كى تصير جزر الهند أكثر إنتاجا .

ولكن عندما ننظر إلى الحكم الهولندى من وجهة نظر الأندونيسيين فما أكبر الاختلاف فى الصورة ، ففى أكثر الوقت إلى القرن العشرين — وفى بعض الأحيان إلى أن رحل الهولنديون نهائيا عن الجزر — كان الكسب والاستفادة هما كل مايعنى بهما الهولنديون ، وقلما يهتمون برخاء أهل البلاد .

ومما يذكر للمؤرخين الهولنديين الأمناء بالثناء أنهم سجلوا هذه الوقائع جليا فى كتاباتهم . ثم مما يذكر بالحمد للهولنديين العاملين على خدمة الإنسانية أنهم أكثر من أهل أية أمة أخرى جديرون بالشكر من الأندونيسيين لأنهم كشفوا الغطاء عن شرور الحكم ثم عملوا على الإصلاح .

وجاءت الإصلاحات ولكن فى بطء شديد . كانت حتى التى تمت فى القرن العشرين تقضى بالرقابة الشديدة من الأجانب، فلم يبذل إلا القليل من الجهد لمساعدة الأندونيسى فى الوقوف على قدميه حفظا لكرامته ، وكان الهولنديون منهمكين فى تقدمهم

المادى وكأنهم نسوا أن الأندونيسيين — شأنهم شأن الأوربيين أو أى شعب آخر — لا يعيشون بالخبز وحده .

يقول الهولنديون بحق : إن القسوة والاستبداد كانا فى جزر الهند على أنواع ناشئة فى أرض البلاد حتى قبل وصول الأوربيين بزمن بعيد ، وأن الأوربيين لم يفعلوا غير استخدام العادات القائمة والنظام الإقطاعى المستبد القديم لأغراضهم ، وإلى اليوم نرى الخادم الأندونيسى وهو يحمل القهوة لجماعة من مواطنيه ينحنى عند الباب ويظل منحنيا طول الوقت الذى يمكث فيه فى الغرفة خشية أن يرتفع الرأس أعلى من السادة الذين يقوم بخدمتهم ، فالمدافعون عن السياسة الهولندية يذكرون هذا وغيره من العلامات الباقية ليبرهنوا على أن الأندونيسيين عندهم الميل الطبيعى لهذه العلاقة بين السيد والخادم ، ويحبون أن يتلقوا الإرشاد الأبوى ممن هم خير منهم ، سواء أكانوا ملوكا جاويين أم رؤساء فى شركة الهند الشرقية .

ويتأمل الهولنديون اليوم إلى الحياة السياسية المختلطة لأندونيسيا والأزمة الاقتصادية التى يظهر أنها دائما على الأبواب فيقولون : « انظروا : أنهم لم يكونوا على استعداد للاستقلال وكان الأمر خيرا للجميع فى جزر الهند لو أنهم

ظلوا تحت سيطرتنا ! انظروا إلى مافعلناه من أجلهم ! ثم انظروا إلى ما نجنيه من الشكر ! ويذكر الأندونيسيون الوقائع نفسها ولكن على سبيل النقد ، فهم يشعرون أن الهولنديين كانوا يستطيعون عمل الكثير فى التعليم وبناء القيادة المحلية فى القرن الماضى ، وكان من المستطاع تعليم عدد أكبر من الأندونيسيين ويزودونهم مباشرة بتجارب أوسع فى الأمور العامة التى تقوم عليها الديمقراطية . وكان كثيرون من الهولنديين ذوى القلوب الكريمة يقولون مثل هذا القول ولكنهم لم يستطيعوا إقناع الحكومة الهولندية .

كانت ظواهر الأمور تنبىء بأن الهولنديين ناجحون فى الحكم غير المباشر عن طريق الأمراء وزعماء القرى باتباع النظام الاستبدادى القديم وتقويته عمداً فى بعض الأحايين وهذا ماحال دون الهنديين ورؤية التغييرات الكبيرة فى التفكير الأندونيسى إلا بعد فوات الوقت . ولقد انطلقت الأفكار الجديدة والروح الجديدة حين جاءت فى ثورة سياسية ، ولكن الأهالى لم يكونوا على استعداد للتعليم أو المرور فى خطوات حكم أنفسهم لتولى هذا الواجب الثقيل وهو إدارة أمورهم بأنفسهم . وقد تبين الفرق واضحاً جداً بينهم وبين استعداد الهند

للتخلص من سيادة البريطانيين أو الفلبين عندما تلقت استقلالها من الولايات المتحدة .

وسنعود إلى هذا الأمر فى فصل آخر ولكن لنتتبع الخطوات التى أنشئت بها أمبراطورية هولندة فى جزر الهند الشرقية ، ثم فى الفصل القادم نعالج التقدم التاريخى فى الزراعة وفى التعدين ، وكان ذلك على الأكثر بفضل نشاط الهولنديين وخدماتهم العامة ، سواء أكانوا خبراء أم علماء أم مديرين .

وقد حصن الهولنديون مخزنهم فى جاركرتا بين سنتى ١٦١٨ و ١٦٢١ وحولوا إسمه إلى بتافيا وردوا البريطانيين عن محاولة استيلائهم عليه كما رأينا فى الفصل السابق . ويمكن أن نعتبر هذه البداية الحقيقية لشركة الهند الشرقية الهولندية بالرغم من أوجه النشاط التى ذكرناها من قبل ، وقد ظلوا ثلاثة أرباع قرن يتوسعون فى أوجه نشاطهم ويغدقون على الوطن نهراً ذهبياً جارياً من الفوائد .

وفى سنة ١٦٤١ استولوا على ملقا من البرتغاليون وهزموا السلطان أجونج سلطان متارم الذى حاصر بتافيا وفى سنة ١٦٤٠ قضوا على استقلال مملكة آتشية فى شمال سومطرة (وإن لم يكن ذلك نهائياً إذ ظل أهل آتشيه يدخلون فى مقاومات قوية لافتة

للأنظار بين جيل وآخر فى المأساة الأندونيسية) وقضوا على آخر المعاقل الأسبانية فى ملوكو كما قضوا على الممالك القوية ترناتى وتيدور ومكسار .

وبعد ذلك بقليل اعترفت بسيادة الهولنديين متارم وهى أقوى مملكة فى جاوة . وخضعت كذلك بنتام وهى من أهم الممالك الواقعة غرب بتافيا . وفى القرن السابع عشر — حتى بعد أن فقدت هولندة مركزها كقوة كبيرة فى أوربا — ظل الهولنديون يقوون مركزهم فى جزر الهند الشرقية .

على أنه فى أواخر القرن الثامن عشر قامت متاعب حقيقية نتيجة لحوادث خارجية مع أن الأمور كانت تسير سيراً حسناً فى الجزر نفسها ؛ فقد اشترك الهولنديون فى ثلاث حروب طويلة فى جاوة (حروب على تولى عرش خال) وفى نهاية الحرب الثالثة بعد منتصف القرن كانت بتافيا لأول مرة بدلا من أية مملكة جاوية أخرى هى أكبر قوة فى جزيرة جاوة ، فالهولنديون يستطيعون أن يعينوا أو يعزلوا الملوك كما يشاءون وكانوا يفعلون ذلك ، وكانت الأمور تبدو حسنة من وجهة النظر الهولندية ، ولكن المتاعب تراكمت بعد بضعة أجيال فى زمن الثورة الأمريكية عندما حاصر

البريطانيون الموانىء الهولندية ، وأخذوا يستولون على السفن الهولندية .

توقفت السفن فتجمعت البضائع فى مخازن بتافيا دون بيع وظلت المستعمرة نحو ثلاثين سنة على شفا الإفلاس ، فقد تركت وشأنها دون مساعدة من الوطن ولا حتى إشراف مباشرة كما كان الأمر فى الماضى .

وحين حال الأسطول البريطانى دون هولندة وحمل البضائع إلى أوربا رحبت بتافيا بسفن الدول الأخرى التى كانت تشترى البضائع فى المدينة وتتولى نقلها إلى أوطانها على مسئوليتها .

وكانت السفن الدنماركية والأمريكية كثيراً ما تأتى فى هذه الفترة . على أن الثورة الفرنسية وحروب نابليون زادت فى المتاعب ، فإن فرنسا احتلت البلاد الهولندية فى سنة ١٧٩٥ وقلبت الهيئة الحاكمة القديمة وألغت الشركة الهولندية الشرقية بعد سنوات قليلة ، وقامت الحكومة الجديدة فى هولندة بإدارة أعمالها ، وحتى قبل ذلك كان البريطانيون قد تغلبوا على الأسطول الحربى للشركة فى مياه جزر الهند الشرقية .

وفى سنة ١٧٩٦ كانت كل الأراضى الهولندية هنالك فيما عدا جاوة والجزر الشرقية قد استولى عليها البريطانيون ، ثم أعيدت فى معاهدة إميان ، ولكن لم تمض سنة حتى قامت حرب أخرى وخسر الهولنديون أكثر الجزر .

ونصب نابليون أخاه لويس بونابرت ملكا على هولندة ، وفى سنة ١٨١٠ ضم هذه الدولة رسميا فصارت جزر الهند أرضا فرنسية لبعض الزمن ولو أن الرجل العادى فى أندونيسيا كان يعلم بماجريات الأمور فى مسرح العالم لشعر كأنه كرة تقذف وترد من دولة إلى دولة .

كان البريطانيون يعرفون أن الدفاع عن المستعمرة ضعيف وأن نابليون لايستطيع أن يرسل قوة تساعد هذا الجانب البعيد من امبراطوريته ، لذلك تحركوا فى قوة كبيرة واستولوا هذه المرة حتى على جاوة .

وكان مدير هذا الهجوم البريطانى لورد منتو العظيم الحاكم العام فى الهند ، وكان رجلا مستعمرا بعيد النظر ولكن لاتقوم ذكراه فى الشرق الأقصى على أعماله ، بل على مساعده البارز توماس س . رافلز الذى عرف فيما بعد بمنشىء سنغافورة الحديثة.

حكم رافلز جزر الهند أكثر من أربع سنوات ابتداء من

١٨١١ ، وكانت فكرته الجديدة عن الحكم الاستعمارى واهتمامه العميق بحياة الأندونيسيين وتثقيفهم لهما أثر كبير فى تاريخ البلاد فيما بعد ، ولم يتم فعلا الكثير فى أيام حكم رافلز ، ولكن عندما ننظر إلى آرائه نرى أنها غرست للمستقبل .

كان المستعمرون الهولنديون يتعاملون عادة مع الأمراء وعلية القوم ويتجاهلون عادة ثقافة الشعب وديانته وطريقة حياته مع أن كسب الأوربيين يتوقف على مجهود الشعب . أما رافلز ورئيسه لورد منتو فكانا ينظران إلى الجانب العملى كما ينظران إلى الجانب الإنسانى الذى يقضى بالتفكير فيما ينفع الناس ، وكانا فضلا عن ذلك عندهما اهتمام حقيقى بتاريخ وطرق معيشة أولئك الناس الذين وضع الله (بحكمته العليا لوثوقه فى فى تقديرهم) أمور هؤلاء الناس فى أيديهم فكانا يحيطان نفسهما بالخبراء الدارسين لحضارة الأندونيسيين وأمورهم ، وكتب رافلز نفسه فيما بعد كتابا قيما فى تاريخ جاوة .

كان رافلز طموحا مغرورا شديد المراس وخبيثا ، وفيما بعد كان يقوم بدسائس ليقاوم الصلح بين الهولنديين والبريطانيين ،

ويشعر بعض الناس أنه كاد يقع فى الخيانة فى سبيل مقاومة حكومته . ولكن الواقع مع ذلك أن رافلز كان أول أوربى فى مركز عال وضع أهل أندونيسيا فى المكان الجدير بهم أى فى منتصف الصورة ، ولهذا فهو جدير بأن يشغل مكانا محترما فى تاريخ الدولة ولو أنه لم يعمل كثيرا إلا أن يقطع الصلة بالماضى فى الوقت الذى عادت فيه أندونيسيا إلى الهدلنديين فى سنه ١٨١٦ بعد مؤتمر فينا .

ربما أن فكرة رافلز لم تكن لتنفذ لو أتيح له وقت أوسع ، ولكن بعض آرائه سديدة ، فقد كان يشعر أن النظام السابق الذى يقضى على الأهالى بتسليم المنتجات قسرا عن طريق الأمراء لا يمكن أن يدوم طويلا ، فإن الموظفين الهولنديين كانوا يطلبون كمية محددة من الرز أو الفلفل أو البن بأثمان محددة، فكان ذلك يؤدى إلى ضغط الأمراء وطحنهم للفلاح . وليس لهؤلاء الذين يعملون العمل الحقيق أى صالح فى العمل أو فائدة ملحة لتحسين الزرع . وكانت نظرية رافلز قائمة على أن جزءا كبيرا من الأرض ملك للأوربيين فى بتافيا ويمكن تأجيرها للفلاحين الذين يتعاملون مباشرة مع أصحاب الأرض فى بتافيا بدلا من أولئك الملوك الكسالى عديمى النفع اجتماعيا .

ولكن زعماء القرية كان يعقدون اتفاقاتهم تحت نظام الإيجار للفلاحين ، وكثيراً ما كانوا يسيئون استعمال سلطانهم بقدر إساءة الأمراء فى الماضى ، وكانت هنالك أخطاء أخرى فى النظرية ولكنها كانت تشير للطريق إلى نظام اجتماعى أحدث ، وفى بضع سنوات يقضى على النظام الإقطاعى نهائيا وهى لاتساعد على رخاء الناس فى التطبيق العملى إلا قليلا ، وفى رأى النقاد الكثيرين لنظريته من الهولنديين أن لاعلاقة لها بأية آراء إنسانية ولكنها فى الواقع تفتح أفقا جديدا ، فقد أعلنت فعلا على الأقل أن الادارة الاستعمارية يجب أن يكون مرماها الأول رخاء العامة من السكان .

وبعد اثنى عشر عاما من عودة المستعمرة الى الهولنديين بعد انتزاعها من رافلز حدث تغيير من أهم التغييرات فى الحياة الاقتصادية ، ذلك هو اتباع « نظام الإنتاج الزراعى » فقد أدى إلى تعديلات واسعة النطاق ، وبهذه السياسة صارت جزر الهند فى الواقع مزرعة هولندية عظيمة تنظمها وتشرف عليها حكومة بتافيا ، فلم يعد الإشراف على الفرد الأندونيسى مباشرا فقط ، بل صار الهولنديون أكثر نشاطا فى مجرى الأمور العملية ؛ فهم يتولون انتخاب الحاصلات وتقرير طريقة انتاجها وهم الذين

يقومون بالبحوث الواسعة وينشئون الأعمال الهندسية كالتنظيم الواسع للرى .

قبل ذلك كان الهولنديون مجرد تجار يشترون الحاصلات ، والأندونيسيون مجبرين على تسليمها لهم ، ولكنهم أصبحوا مزارعين ناشطين يتولون أكبر مزرعة فى العالم ، وفى زمن سابق حاولوا فى جزر ملوكو أن يتولوا إنتاج القرنفل وجوز الطيب ولكنهم فى غيرها ولا سيما فى بتافيا قبل نظام الإنتاج الزراعى ، كان للهولنديين مراكز تجارية لحد ما كالمراكز التى أنشأتها شركة خليج هدسون فى كندا أو مثل حصن بنت وغيره من المواقع التى أقامها تجار الفرو الأمريكيون فى الغرب الأمريكى .

ظلت الطريقة الجديدة فى التنظيم والإدارة تزيد المكاسب بعض الوقت ، ثم كان لها تأثير كبير فى تقـــدم الزراعة فى أندونيسيا كما سنرى فى الفصل التالى . على أن الفلاح الذى قاسى طويلا لم يستفد إلا مجرد استبدال الحكم القديم للأمراء بحكم دولة أجنبية . والواقع أنه صار أسوأ حالا لأن السيطرة الهولندية على حياته كزارع لم تنه أنواع السيطرة الأخرى التى يتألم منها ، فقـــد ظلت للملك ورؤساء القرى سيطرتهم الكبيرة يؤيدها الهولنديون مادامت لا تتعارض مع أعمالهم .

وقد أصيبت « المجالس القروية » المحلية بضرر حقيق ، وكانت نوعا من الديمقراطية الأساسية ، وكانت هذه المجالس لابد أن تتخذ قراراتها بالإجماع ، ويؤجل التنفيذ حتى يتفق الأعضاء جميعاً ، وكان زعيم القرية مجرد متحدث عن الجماعة لاحاكم القرية ، ولكنه بموجب نظام الإنتاج الزراعى صار الحاكم المستبد الفعلى بحكم القوة الاقتصادية التى منحها له الهولنديون .

يرى بعض الناس أن هـذا الضرر الذى أصيبت به جزر الديمقراطية هو من أسباب المتاعب فى اندونيسيا اليوم ويرون أنه لو شجعت المجالس القروية لمهدت الأرض للحكومة الوطنية بنفس الطريقة التى مهدت بها مجالس المدينة فى نيو انجلند الأرض وصارت التربة قوية لإنشاء الولايات المتحدة . وعلى كل حال لم يؤد الإصلاح الزراعى إلى تحرير الفلاح بل زادت عداواته وشكاياته التى برزت بعد قرن فى الاتجاهات الشيوعية والثورية .

زاد النظام الزراعى الهولندى مساحة الأرض التى صارت تحت سيطرة الهولنديين زيادة كبيرة أو على الأصح صارت تحت سيطرتهم على مساحة فعلية بعد أن كانت لهم مراكز متفرقة

فى الماضى وكانت الزيادة نتيجة للفكرة الجديدة عن التوسع فى زراعة الحاصلات فى الداخل بدلا من الاعتماد على مواقع التجارة والمساحات القريبة من الموانىء .

وقامت أيضاً حركة يراد بها مقاومة مغامر جرىء بريطانى هو چيمس بروك الذى سمى فيما بعد الراجا الأبيض لساراواك ، فنى سنة ١٨٤٠ وضع يده على الطرف الشمالى لجزيرة بورنيو حيث لا تزال ثلاثة أقسام من أرضها بريطانية وهى : ساراواك ، وبرونى ، وشمال بورنيو .

فان الطريقة التى هى أشبه بما يجرى فى أفلام هوليود الشمالية والتى بنى بها بروك امبراطورية على إحدى الجزر التى تنتمى إلى هولنده جعلت الهولنديين يفكرون فى أن الوقت حان لتثبيت حقوقهم ، لذلك عملوا فى الخمس عشرة سنة التالية لمقاومة التهديد البريطانى ووجدوا فرصة للاستفادة من حاصلات جديدة بزيادة رقعـــة الأرض التى تحت سيطرتهم إلى نحو حجم الجمهورية الاندونيسية الحاضر .

وفى أثناء منتصف القرن التاســع أخذ الإصلاحيون الهولنديون يحتجون على المعاملة غير العادلة بل الوحشية التى

يعامل بها الاندونيسيون لاسيما مايسمى « التهدئة » الإجبارية في المساحات التي يضعون اليد عليها ، وصارت الحكومة منذ ذلك الزمن تهاجم دائما على الأقل من جانب الرأى فيتهم الموظفون بنقض المعاهدات والسماح بالرق وتشجيع تجارة الأفيون وتجريد الجزر من مواردها دون أن تكون لاندونيسيا فوائد في مقابل ذلك ومعاملة الأهالى كمواطنين من الدرجة الثانية في نفس موطنهم ، وكان النقد يوجه بصفة خاصة إلى إهمال ضروريات ، لاسيما التعليم ، مع أن الأهالى هم تحت وصاية هولندة .

وكما أن كتاب « كوخ العم توم » أثار قلوب الأمريكان على الرق في تلك البلاد ، كذلك أثار كتاب هولندى شهير اسمه « ماكس هافيلار » الرأى العام على سياسة هولندة في جزر الهند وكان مؤلفه داووس ديكر الذى نشره تحت اسم « ملتاتولى » موظفاً استعماريا سابقا . وقد رأى الأمور رأى العين وكذلك شأن و . ر . فان هيفل القس الذى صار مدافعا قويا عن الكرامة والمعاملة الإنسانية بعد أن طرد من جزر الهند للتصريح بمثل هذه الأقوال فيها .

وكان الرجال من أمثال ديكر وفان هيفل وغيرهما يجدون

تأييداً فى تيار التحرر الأوربى الناشىء ، وكان من نتيجة هـذا الضغط أن أجريت إصلاحات كثيرة عندئذ أو بعد قليل فمنع الرق سنة ١٨٦٠ أى قبل أن يعلن لنكولن فى أمريكا إلغاء الرق بسنتين وأجريت تحسينات فى المحاكم والقضاء وحرمت وسائل الغش الصارخ للاندونيسيين فى المعاملات نظريا وانتهت لحد ما عمليا ، على أن الإصلاح الذى كان له أثر ثابت باق فهو قانون منع غير الاندونيسيين من شراء الأراضى .

ومما يناسب الآراء التحررية فى ذاك الزمن كانت هنالك حركة كبيرة لذهاب الأفراد للعمل فى جزر الهند وهجرة متسعة من الوطن الهولندى الأصلى ، وحاول الموظفون بمدينة بتافيا فى بادء الأمر أن يستفيدوا ماليا ببيع الأراضى ، وكان هنالك خطر حقيق فى أنه لو استمرت هذه السياسة لسيطر أصحاب الأموال الاجانب لا على موارد أعمال الجزر وحدها ، بل على كل أراضيها ، ولتملك الارض عدد أقل وأقل من الايدى فتنشأ طبقة من أصحاب الاراضى وتقوم مشكلة ملاك الارض التى لاتزال مثار المتاعب فى جهات أخرى من آسيا .

ومن مواطن ضعف الدعوة الشيوعية فى اندونيسيا أن

أصحاب هذه الدعوة لا يستطيعون التوسع فى الكلام عن مشكلة ملاك الأرض وهى نقطة ارتكاز لدعوتهم فى غيرها من البلاد ، فان أندونيسيا مشاكل قد تدعو لليأس ولكن فيها أساس متين هو الاتساع فى توزيع الأراضى . وهذا الاتجاه زاد فى سنة ١٩٦١ حين صار من برنامج الرئيس سوكارنو تحديد الأرض التى يمكن أن يمتلكها أحد الأفراد .

ولعله يجمل بنا هنا أن ندلى بملاحظة صغيرة تهم الأمريكيين ، هى أن المدينة المسماة هولنده بولاية متشيجان بأمريكا كان الفضل فى وجودها للقانون بشأن تملك الأراضى فى أندونيسيا ، فقد اعتزم قس اسمه « البرتوس فان رالت » وجماعة من أتباعه فى هولنده أن ينشئوا لهم مستعمرة فى جزيرة جاوة فلما أوشكوا على الرحيل علموا أنهم سيمنعون من شراء أراض بجاوة (ولو أنه عرضت عليهم بعض الأراضى فى ملوكو) فقرروا السفر إلى أمريكا ، وفى سنة ١٨٤٧ أنشأوا المدينة التى تحمل إسم موطنهم الأصلى والتى اشتهرت بزراعة الخزامى .

وفى تاريخ أندونيسيا كثير من التحولات فيما إذا كانت الحكومة تشترك فى المعاملات التجارية أو تمتنع عنها ، ولم يكن نظام الانتاج الزراعى إلا أهم خطوة اتخذتها الحكومة . أما

السيطرة على إنتاج التبول فى جزر ملوكو فانتهت بعد رافلز بقليل، وأما نظام الانتاج الزراعى فقد أعاد الموظفين نبتافيا إلى المعاملات التجارية ثانية ، وأخـذوا يتاجرون فى كثرة لا سيما فى البن والسكر ، وظلت الحال على ذلك إلى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر حين ابتدأ الأفراد من الهولنديين يتدخلون ويزيحون الموظفين .وفى نوع من المنتجات وهو البن ظـل نظام الإنتاج الزراعى سائداً ولم ينته إلا فى سنة ١٩١٧ .

وكان آخر تغير كبير فى العلاقات الهولندية مع المستعمرة فى بدء القرن الحالى وهو ما عرف باسم « السياسة الأخلاقية » وهذه السياسة تظهر فى آن واحـد الأثر الإنسانى للاصلاح وازدياد الشعور بين رجال الأعمال الهولنديين بأن رخاء جزر الهند سيجعل منها سوقاً عجيبة لمبيعاتهم ، وفـكروا أيضاً فى أن الضرائب على عمـل الأفراد فى الجزر تساهم فى نفقات إدارة المستعمرة ، فقد صارت هذه النفقات عبئاً ثقيلا على الوطن .

أما أهل أندونيسيا فـكان الـكسب الأكبر لهم من السياسة الأخلاقية هو النظرة الجديدة فيها للتعليم والصحة والمساعده فى الخدمات العامة ، وقد قال الوطنيون فيما بعد أن هذه الإجراءات

كانت قليلة وجاءت متأخرة ولكنها تمثل تغييراً كبيراً من الموقف الرسمى السابق ، وكان بعض الموظفين الهولنديين فى ذلك العهد لا سيا بعض المدرسين والأطباء مخلصين فى خدمتهم للأندونيسيين كما لو كانوا يعملون لوطنهم . ولم يكونوا يستطيعون دفع الحكومة على سداد المبالغ التى كانوا يرونها واجبة لتحقيق الأغراض ولكنهم بأنفسهم بذلوا كل جهد يستطيعونه .

إننا لا نعرف إلا القليل جداً عن حياة العامة من الأندونيسيين قبل القرن العشرين ، فأكثر الاتصال قبل ذلك كان مع الأمراء والأسر الكبيرة ، وقليلون بين الهولنديين فى الجزر درسوا الحياة العامة فيها ، إلا فى الفترة الأخيرة جداً من الاستعمار .

فقبل النظام الزراعى كان المديرون من المستعمرين ليس لهم اتصال بالناس خارج الموانىء والقصور حتى ظن أحد الكتاب أن غالبية الاندونيسيين قبل سنة ١٨٠٠ لم يروا رجلا من البيض . ويفخر أحد حكام القرن السابع عشر بأنه حكم الجزر الاندونيسية خمساً وعشرين سنة من قصره فى بتافيا دون أن يغادر المدينة إلا مرة أو مرتين فى رحلة صيد بالأدغال المجاورة . ونستدل من قصص أخرى بعد نحو من قرنين على أن كثيرين من الهولنديين

لم يكونوا يهتمون بالاندونيسيين وطريقة حياتهم، وكثيراً ما نجد جهلا بالميراث الحضارى للبلاد وضيق أفق فى مقتهم للديانة واعتقاداً أكيداً لديهم بأن أهل البلاد كسالى بطبيعتهم وغير قابلين للتعليم .

والتاريخ الذى كتبه الاندونيسيين أنفسهم لا يساعدنا كذلك كثيرا ؛ فأغلبهم يعنى بالملوك والنبلاء ، وهو فى هذا يذكر حوادث خيالية وكثيراً ما يعيد رواية أساطير هندية وجاوية فى إطار جديد .

وبالرغم من نقص المصادر الثابتة التاريخية فإنا نعلم أن السيطرة من أعلى صارت الطريقة الطبيعية للحياة ، سواء أكان الحاكم هو سلطاناً محلياً أو شركة الشرق الهندية الهولندية أو الحكومة الهولندية أو شركة فردية ، ولا ريب فى أن ذلك إطار ضعيف للاستقلال الوطنى ! دع عنك الحياة الديمقراطية التى تتطلب مواطنين يعتمدون على أنفسهم ، وفى ذلك ما يفسر لنا الكثير من المتاعب التى تقابل الاندونيسيين بعد الظفر باستقلالهم .

الفصل السادس

سخاء الطبيعة بمساعدة الإنسان

مهما يكن حكم التاريخ على الهولنديين فى سيطرتهم على أهل جزر الهند فلن تكون هنالك أسئلة عن الأعجوبة أو المعجزة الخضراء وما فعلوه فى الوقت ذاته للطبيعة لاسيما فى فترة النظام الزراعى ، ومن بعد حين أوجدوا حاصلات جديدة وطرقا جديدة لزيادة الانتاج واكتشفوا أيضاً مواطن للمعادن وابتاعوا وسائل ماهرة للرأى والنقل والاتصال .

وحين جاء الأوربيون أول مرة لجزر الهند كان اهتمامهم بالكسب السريع من تجارة التوابل سببا فى إهمالهم لهبة أكبر تقع تحت أنفهم ، فكان شأنهم شأن الباحثين عن الذهب فى كاليفورنيا بأمريكا سنة ١٨٤٩ الذين لم يهتموا فى ذاك الوقت بالثراء الحقيقى والأكبر الدائم لكاليفورنيا فى القطن والحبوب والبرتقال وغيرها .

لقد أهمل الأوربيون لأكثر من قرن بعد وصولهم لجاوة الثروة الكامنة فى البلاد التى صارت بعد ذلك الوقت من أغنى

البلاد بإنتاجها فى العالم بأكمله ، وقد صار القرنفل وجوز الطيب اللذان كانا ينظر إليهما على أنهما أغنى الكنوز فى الشرق لاأهمية لهما عند الكلام عن ثروة اندونيسيا حتى أننا لانفكر فيهما إلا على أنهما جزء من ذكريات التاريخ القديم .

والواقع أن قصة التبول فى جزر ملوكو تدلنا على المشاكل التى تقابل الإنسان عندما يحاول السيطرة على الإنتاج ، ففى الزمن الذى لم يكن يوجد فيه القرنفل وجوز الطيب فى العالم فى غير تلك الجهات لم يقم الهولنديون باحتكارهم فحسب ، بل عمدوا إلى قطع الاشجار التى لايريدونها منها إذكان هنالك الاحتمال بأن تصل منتجاتها للسوق عن طريق المهربين أو على الاقل تؤدى إلى تخفيض الثمن بزيادة كميات التوابل ، وكان التجار البريطانيون والبرتغاليون والامريكيون أحياناً يتخذون قاعدتهم فى مكسار بجزر السليبس ، وظل المهربون من ملوكو يمدونهم بالتوابل لبعض الوقت .

وكان تدمير أشجار القرنفل وجوز الطيب مأساة لسكان هذه الجزر ، ويذكر مؤرخ هولندى أن السكان أبيدوا فى أثناء الاستيلاء على أرضهم ، وعلى كل حال كان فى ذلك

القضاء على الوسيلة الطبيعية لحياة الكثيرين منهم ، وقد أدى هذا التحكم فى الإنتاج (مثل التحكم فى مساحة الزرع وفى الحرث تحت السطح الذى اتبع فى أمريكا فى زمن بعد ذلك) إلى بقاء الثمن مرتفعاً لفترة .

على أن أهل ملوكو لو عرفوا أن سياسة الهولندلين كلفتهم خسارة كبيرة فيما بعد لاعتبروا ذلك نوعا من العدالة الربانية ، إذ اشتد الطلب على التوابل ، ولكن لم يجد الهولنديون أشجارا لتلبية الطلب ، نعم إن أشجار القرنفل وجوز الطيب تظل تثمر أجيالا ولكن الشجرة عند زرعها لاتخرج أول ثمرها إلا بعد عشر سنوات أو اثنتى عشرة سنة ، فكان من المستحيل أن يعوضوا النقص ويستفيدوا به .

وفى هذه الأثناء كان البريطانيون والفرنسيون قد تمكنوا من تهريب الشجيرات إلى مستعمراتهم . والآن لا يرد أكثر القرنل فى العالم من أندونيسيا ، بل من جزيرتى زنجبار ومدغشقر ، وأكثر إنتاج فى جوز الطيب من جزر الهند الغربية البريطانية والبرازيل . وليس عجيباً بعد هذه التجربة أن يقرر الهولنديون فى الربع الأول من القرن التاسع عشر بأن حرية التجارة فى التوابل من غير

التسليم الإجبارى أو تجديد الإنتاج تكون ذات فائدة أكبر لهم .

ومع هذا ظل التسليم الإجبارى هو القاعدة فى غير ذلك ، مثل الفلفل من بنتام ، والرز من متارم ، وهما المملكتان القائمتان على جانبى القاعدة التجارية الأساسية فى بتافيا ، وظلت هذه الطريقة المتبعة لحد كبير إلى عهد نظام الإنتاج الزراعى . والواقع أن بتافيا كانت تقول للملك المحلى : « نحن لا يهمنا كيف نفعل هذا ، ولكن فى السنة القادمة عليك أن تسلمنا كذا طنا من الفلفل ، وسندفع له كذا عن الطن الواحد » .

وكان الملك وهو فى حاجة إلى معونة الهولنديين العسكرية والمالية وهو أيضاً ممنوع من المتاجرة مع غيرهم يصدر الأوامر التى تلقاها إلى رعاياه ، وكان لا يساعدهم أو يشير عليهم برأى بل هو يخبرهم بالكمية المطلوبة ثم يعود الملك إلى حياة اللهو والحفلات والحروب المحلية التى لا طائل وراءها .

وكانت الحاصلات فى بداية القرن الثامن عشر هى المألوفة منذ سنوات عديدة . فالرز هو الطعام الأساسى ، والفلفل والتوابل والسكر هى التى تأتى بأكبر دخل ، ولكن روح التجربة

سيطرت على عدد قليل من الهولنديين فى جزر الهند فجربوا منتجات أخرى .

كان البن من المنتجات التى نجحت نجاحاً كبيراً ، إذ وزعت النباتات على زعماء المراكز بقرب بتافيا فأنتجوا مائة رطل من حبوب البن فى سنة ١٨١١ وظلت الكمية تنمو إلى عشرة ملايين فى السنة بعد عشر سنوات ، وصار البن أهم الحاصلات التى تصدرها أندونيسيا فى الربع الأخير من القرن ، ولا يزال الأمريكيون يذكروننا فى تعبيرهم العادى عند طلبهم « فنجانا من جاوة » بالزمن الذى كان فيه البحارة الأمريكيون يفكرون فى بتافيا على أنها المصدر الطبيعى للبن فى العالم .

كان البن هو المحصول الجديد الوحيد قبل أن يؤدى نظام الإنتاج الزراعى إلى التفات الجميع للبحث والتجربة ، فلما حدث ذلك كانت النتائج المثيرة الواحدة تلو الأخرى . وصارت الحدائق النباتية فى بوجور على مقربة من بتافيا مركز البحوث الزراعية وصار العلماء فى أجزاء كثيرة من الجزر لا يكلون من البحث عن نباتات جديدة وطرق جديدة لإنمائها .

وبعد الفشل عدة مرات ظهر أن الشاى من ولاية أسام الهندية قابل للزراعة فى جاوة ، فحديقة الشاى تحتاج إلى أن يكون الجو ملائماً تماماً يجمع بين الدفء فى الحرارة والمطر الغزير والارتفاع المناسب ، وهذه الشروط تتوافر على سفوح الجبال فى جاوة ، وقد صارت حدائق الشاى من أجمل المناظر الجذابة فى البلاد وصارت أندونيسيا الدولة الثالثة فى إنتاج الشاى فى العالم .

وجاء التبغ من أمريكا عن طريق الاسبان فى القرن السابع عشر وصار يزرع القليل منه منذ ذلك العهد ، ولكن كان الفضل لشركة خاصة فى القرن التاسع عشر فى أن عرفت كيف ينمو النبات وينتشر فى أراض أخليت من الأدغال فى شمال سومطرة وكيف يستجيب النبات للطريقة العلمية التى اتبعت وتنمو أنواع خاصة منه فى سومطرة وجاوة ومدورا وكل منها له صفات خاصة لاتوجد فى أنواع التبغ الأخرى .

واستورد نخيل الزيت من غرب أفريقيا إلى أندونيسيا فى منتصف القرن التاسع عشر ونجح من البداية تقريبا ويخرج من ثماره نوعان من الزيت : زيت النخيل من اللباب . وزيت

حبة النخيل من الداخل . والأخير أصلح للطعام ومنه يعمل الزبد الصناعى (المرجرين) .

أما أهم استعمال لزيت النخيل فهو فى الصابون والشموع .

ومن النباتات الجميلة المستوردة شجرة الكنكونا التى جيء بها من جنوب أمريكا واعتادت الشجرة الجديدة حياة أندونيسيا وتأقلمت حتى أن جاوة صارت تكسب أكثر وأكثر من السوق فى العالم إلى أن صار نحو تسعين فى المائة من الكينين الطبى (الذى يستعمل فى علاج الحمى) يرد إلى العالم من قشر الأشجار الأندونيسية . على أن المبيعات هبطت فى السنوات الأخيرة إذ تستعمل الآن مواد أخرى كيموية بدلا من هذه المادة .

والكابوك التى يطلقون عليها شجرة القطن الحريرى هى أيضاً من الأشجار المهاجرة ، والغالب أنها جاءت من جنوب أمريكا ، والقطن الذى يستخرج من حوض البذرة مفيد جداً لأنه خفيف فى وزنه ويقاوم الماء كذلك ، وهذا يجعل الإقبال عليه كبيراً للحشو والمخدات وأكياس النوم ، وليس ذلك فقط ، بل للملابس الوقاية من الغرق .

وقد نجحت الشجرة فى جهات أخرى من آسيا ولكن ليس

بمثل النجاح الذى لاقته فى أندونيسيا حيث صارت أم البلاد التى تمون بها العالم .

وكانت أشجار المطاط هى أهم الحاصلات التى أدخلت فى البلاد حسب نظام الإنتاج الزراعى وجنت البلاد من ورائها أموالا ، على أن النتائج منها تأخرت طويلا ، حتى أنها لم تظهر إلا زمن الحرب العالمية الأولى حين تبينت نتيجة زراعة المطاط فى أندونيسيا ؛ إذ قبل ذلك كان العصير يجمع بمحض المصادفة من أشجار المطاط البرية فى سومطرة ، ولكن بعد أن جاءت الأنواع البرازيلية عن طريق الحدائق النباتية فى بوجور ، وبعد تطور طريقة الزرع للإنتاج شغلت أندونيسيا مكانها كأكبر منتجة للمطاط الطبيعى فى العالم . غير أنها فى سنة ١٩٥٩ جاءت بعد الملايو للدرة الأولى . على أنه إذا تحسنت الأحوال العامة فى أندونيسيا فإنه يمكن للبلاد أن تعود إلى المركز الأول فى إنتاج تلك المادة .

أما السكر فهو فى البلاد من زمن قديم ولكن باتباع طرق الزراعة الجديدة زاد محصوله كثيراً وزادت مكاسبه . وغير المطاط والسكر توجد حاصلات أخرى هى أكثر ماتنتجه الزراعات ، نذكر من أهمها البن والشاى والتبغ ونخيل الزيت

والكنكونا والكاكاو (الذى من بذوره يعمل الكاكاو والشيكولاتة، والذى كان من شأن وجوده فى أندونيسيا الهولندية أن اشتهرت الشيكولاتة الهولندية المعسلة) والسيزال الذى منه الحبال والأربطة ،

وقد ظلت بعض الحاصلات الهامة التى تدر مكاسب فى أيدى صغار المزارعين من البداية إلى اليوم ؛ فحدائق الفلفل التى توجد بصفة خاصة فى سومطرة هى عادة صغيرة ، وكثيراً ما تكون عملا إضافياً لغيرها من الأنواع — مثل الديوك الرومى أو بذور عباد الشمس . وكانت أندونيسيا إلى الحرب العالمية الثانية أكبر مورد للفلفل ، على أن الهند احتلت الآن المكان الأول .

وإنتاج جوز الهند يكاد يكون بأكمله فى أيدى صغار الملاك ، ويستعمل لأغراض جديدة فى البلاد ، ويصدر لأغراض متعددة فى جهات أخرى من العالم . ويكون التصدير على هيئة زيت جوز الهند أو على هيئة الكوبرا (وهى لحم جوز الهند المجفف) وكما حدث فى حاصلات كثيرة هبط المحصول كثيراً فى أثناء الحرب العالمية الثانية وفيما بعدها . على أن أندونيسيا لا تزال أكبر مصدر فى العالم لزيت جوز الهند الذى يستعمل فى الصابون

والمرجرين والجليسرين دون ذكر المنتجات الفرعية الأخرى للشجرة ، ومنها كعكة الزيت وهى طعام للمواشى يستعمل من اللحم بعد استخراج الزيت منـــه و « الكوير » وهو خليط يستخلص من ألياف القشرة ويستعمل حبالا أو حصيراً أو أشرطة جوز الهند . ومنها الكعك الأمريكى وأسلاك جوز الهند المعسل .

حتى الحاصلات التى تستعمل للاستهلاك المنزلى لا للبيع الخارجى ، والتى تنتجها العائلات لا الشركات الزراعيـة ، استفادت من التقدم العلمى ، وأكبر مثل لذلك « الكسافا » وهو نبات جذرى أغزر إنتاجا من البطاطس ، ومنـه ينتج النشا الذى يؤكل ، وإنا لنجـده على مائدة الطعام فى شكل التبيوكا .

وقد أدخل الأسبان والبرتغاليون هـذا النبات فى القرن السابع عشر ، ولكن أفضل الأنواع جاء بها العلماء من أمريكا اللاتينية فى القرن التاسع عشر ، وصارت الكسافا فيما بعد من أكبر مصادر الطعام بعد الأرز والحنطة لتقيم أود الأندونيسيين فى حياتهم .

واعتبر الباحثون فى بادىء الأمر الغابات من أعدائهم ؛ فقد كانوا يبحثون عن الاراضى التى تنتج حاصلات ، وصار العمل على التخلص من الغابات من الاعمال المرهقة التى تقصم الظهر ، ولكن بعد قليل صاروا يهتمون كثيراً بما يجدونه من من ثروة فى الغابات لا سيما أن ثلثى مساحة الأرض فى أندونيسيا مغطاة بالغابات . ويستعمل الكثير من أخشاب أندونيسيا وغاباتها محلياً ، ولكن يصدر منها الساج والراتان (وهو نخيل متسلق يقطع شرائط فيصبح من أهم مصادر مقاعد الجلوس والانسجة الخشبية) والبامبو والكافور وأخشاب صباغة الجلود ، ومنها أخشاب ذات رائحة عطرية من زيتها تستخرج العطور ، وكانت من أهم الصادرات التى يقدرها الاوربيون فى الايام الخالية .

ووجد استخراج الاسماك أيضاً عناية فى الثروة العلمية ، ولم يقصر ذلك على دراسات طباع البلطى والتونة والسردين والأنشوجة وغيرها من الاسماك التى تعيش فى المحيط . بل عملوا على حشد البحيرات والانهار بالاسماك ، واعتادوا تربية الأسماك فى البرك « السقيات » وأحواض الرز بين محصولين .

وبينما كان بعض العلماء يتجهون هذا الأتجاه كان

الجيولوجيون والباحثون عن الزيت ومهندسو المعادن يدرسون الثروة المعدنية فيها تحت الأرض ، ومما وجدوه فى هذا المجال كان البترول بالطبع أهم ما وجد ، وهو مع القصدير يمثل ثلث مجموع الصادرات الإندونيسية إلا أن البترول الأندونيسى ليس هاماً بالنسبة للإنتاج العالمى ، فهو واحد أو اثنان فى المائة من الإنتاج العالمى جميعه ، غير أنها أهم مصدر له فى شرق آسيا . وعلى كل حال يباع البترول فى الخارج ويأتى بالدخل من البلاد الأخرى ، وقد بلغ الإنتاج سنة ١٩٥٩ أعلى درجة ، وينتظر أن يظل الإنتاج على هذا المستوى لعدة سنوات قبل أن تبدأ موارده فى أن تقل بالاستعمال .

وكان القصدير يستخرج منذ عدة قرون ، ولكن طرق استعماله وطرق الحصول على كميات أكثر منه زادت كثيراً فى عصر العلم . وتعتبر الجزر الثلاث الصغيرة بنجكا وبليتون وسنجكب بين سومطرة وبورنيو من أغنى موارده ، وهى تجعل البلاد ثانية فى بلاد العالم فى الكمية التى تستخرج من باطن الأرض ، والمعتقد أن أندونيسيا هى سادس دولة فى كمية المعدن الذى لم يستخرج من الأرض .

وظهرت كذلك معادن أخرى ؛ فقد صار البوكسايت

— وهو المعدن الذى يخرج منه الألومنيوم — ذا أهمية ، وإذا كانت أندونيسيا لا تلعب دوراً هاما فى الاقتصاد العالمى للألومنيوم إلا أنها أكبر مصدر له فى آسيا فيما عدا الاتحاد السوفيتى وهو يساعد الاقتصاد الأندونيسى بمبيعاته للخارج ، وقد تقدم استخراج الفحم فضلا عن النيكل والمنجنيز والملح واليود والأسمنت. ولا يزال الأندونيسيون يستخرجون كمية صغيرة من المعدنين اللذين أتيا بالبحارة الهنود لأول مرة من بلادهم إلى الشرق، وهما الذهب والفضة .

ربما لم يكن بين الفوائد التى نشأت فى أندونيسيا من أعمال العلماء والمهندسين والمنظمين والمديرين ما له تأثير فى الشعب أكثر من أنظمة الرى المتنوعة . فقد حسنت الأنظمة القائمة وأقيمت وسائل عظيمة أخرى رسمها وبناها الهولنديون ، وكان من شأن هذه الأنظمة — لا سيما التى أقيمت فى جاوه — أن اتسعت المساحة التى تزرع بالحاصلات وزادت من الإنتاج فى الفدان الواحد فى الأرض التى كانت تزوع من قبل ، وكانت الزيادة فى جملة إنتاج الطعام بهذه الوسيلة وبالطرق الأخرى مما أدى إلى زيادة عدد السكان فى شعب يظهر أن فيه مقاومة لكل قواعد التحديد الطبيعى .

إن جزيرة جاوة، والجزيرة الصغيرة مادورا المرافقة لها، كان تعدادهما نحو خمسة ملايين منذ قرن ونصف قرن . واليوم نرى هذه المساحة نفسها تتحمل — وفى مستوى غير سيء بحسب المستوى الآسيوى — نحو ٥٨ مليونا ، على أن هنالك علامات مثل الحاجة إلى استيراد الرز ، بأن السكان وصلوا إلى الحد الأقصى، وهنالك أسباب أخرى غير زيادة الحاصلات ، هى التى أدت إلى رخاء جزيرة جاوة ، فيقول السومطريون مثلا أن ثروتهم وثروة الجزر الأخرى هى التى ساعدت على نمو عدد الجاويين . وهم يشكون خاصة من أن أهل جاوة يستولون على قسط كبير من الدخل الوارد من بيع البترول والمطاط للخارج ، وهو ينتج فى الجزر الخارجية وهى ملاحظة صائبة ، ومع ذلك فإن الزيادة المتدفقة فى الإنتاج بجاوة لا تزال من معجزات حسن استعمال الإنسان لسخاء الطبيعة .

وقد تحدثنا من قبل عن كثافة السكان فى جاوة بوجه عام ، ولكن الوقائع عن جاوة الوسطى باعثة أكثر من ذلك على الدهشة ، فإن الأرقام حسب تقرير الحكومة الأندونيسية سنة ١٩٥٩ هى ١,١٢٧ شخصاً فى الميل المربع عن جاوة ومادورا و ١,١٣٧ لولاية جاوة الوسطى .

وبوجه عام أن الاتجاه الجديد نحو موارد أندونيسيا الطبيعية أدى إلى مكاسب كبيرة لأصحاب الأموال الأجانب ، وليس ذلك فقط ، بل عادت على أندونيسيا برخاء أو « رأس مال » من أهم ما يوجد على وجه الأرض . فلماذا إذن يريد الأندونيسيون التخلص من إدارة الهولنديين لأمورهم ، مع أنهم فى الظاهر إنما يعملون على خدمتهم جيدا ؟ إن لهذا قصة أخرى نتحدث عنها فى الفصل القادم .

الفصل السابع

فى الطريق إلى الاستقلال

عند ما أعلنت أندونيسيا نفسها دولة مستقلة فى سنة ١٩٤٥ كانت قد اجتازت مرحلة تاريخية فى طريق وعر طويل ، يعود إلى سنوات بعيدة ، ويحتاج السير فيه إلى شجاعة وبطولة من كثير من الناس . وهذه المرحلة نفسها كانت أيضاً بداية طريق أشد خطراً من ذى قبل ، وهو الطريق الذى تسير فيه أندونيسيا الآن ، وهذا هو المجهود فى خلق دولة جديدة وقيادتها نحو الشرف والكرامة بين دول العالم .

انا لنكاد نتعب من تكرار القول أن وجود جمهورية فى أندونيسيا يكاد يكون معجزة من المعجزات . فما أكثر الأخطار التى هددتها من كل جانب عند مولدها ، وما أعقد المشاكل التى لاتزال تواجهها ، ولكن الأندونيسيين أنفسهم غير مقتنعين بمجرد أن يصبحوا دولة ؛ فهم يريدون أن تخدمهم دولتهم وتعمل لخير الناس جميعاً ، وفى الوقت ذاته أن تقبل واجبها كأمة حرة عظيمة فى العالم الحديث .

ولكى نفهم هذا الطموح العظيم يجب أن نعرف شيئاً عن هذا الاستقلال ، وكيف تم ، وإلى أى حد كان قريباً من الفشل والتعثر فى خطوات طويلة من طريقه .

لقـــد ظلت على مر القرون حركات مقاومة للبرتغاليين والبريطانيين والهولنديين ، ويمكن أن نسميها اليوم حركة ضد الامبراطوريات وضد الاستعمار ، ولكن أكثرها لم تكن له علاقة بالحرية الشخصية للأندونيسيين ، بل يحدث أن يكون ملك محلى يحاول أن يتسلط على منافس متحالف مع إحدى الدول الأجنبية الأوربية ، فهى حروب ملوك أكثر منها حروب رعايا ، على أن بعضها جدير بأن يذكر فى أى سجل لحركة التخلص من السيادة الأجنبية .

فى القرن السابع عشر أظهر الأمير عبد الفتاح سلطان بنتام نشاطاً عظيماً وذكاء بأن بنى له أسطولا من السفن وأخذ فى التجارة الخارجية مع الفلبين والهند وحتى مع فارس ، وأرسل سفراء إلى الممالك الأندونيسية الأخرى حتى البعيدة مثل جزر ملوكو ودعا كلا من بريطانيا وتركيا إلى محالفته .

على أن الهولنديين قبضوا أخيراً على الأمير عبد الفتاح ،



حقول الأرز من المناظر المألوفة فى أندونيسيا



بركان فى سومطرة وفى البلاد مائة منه

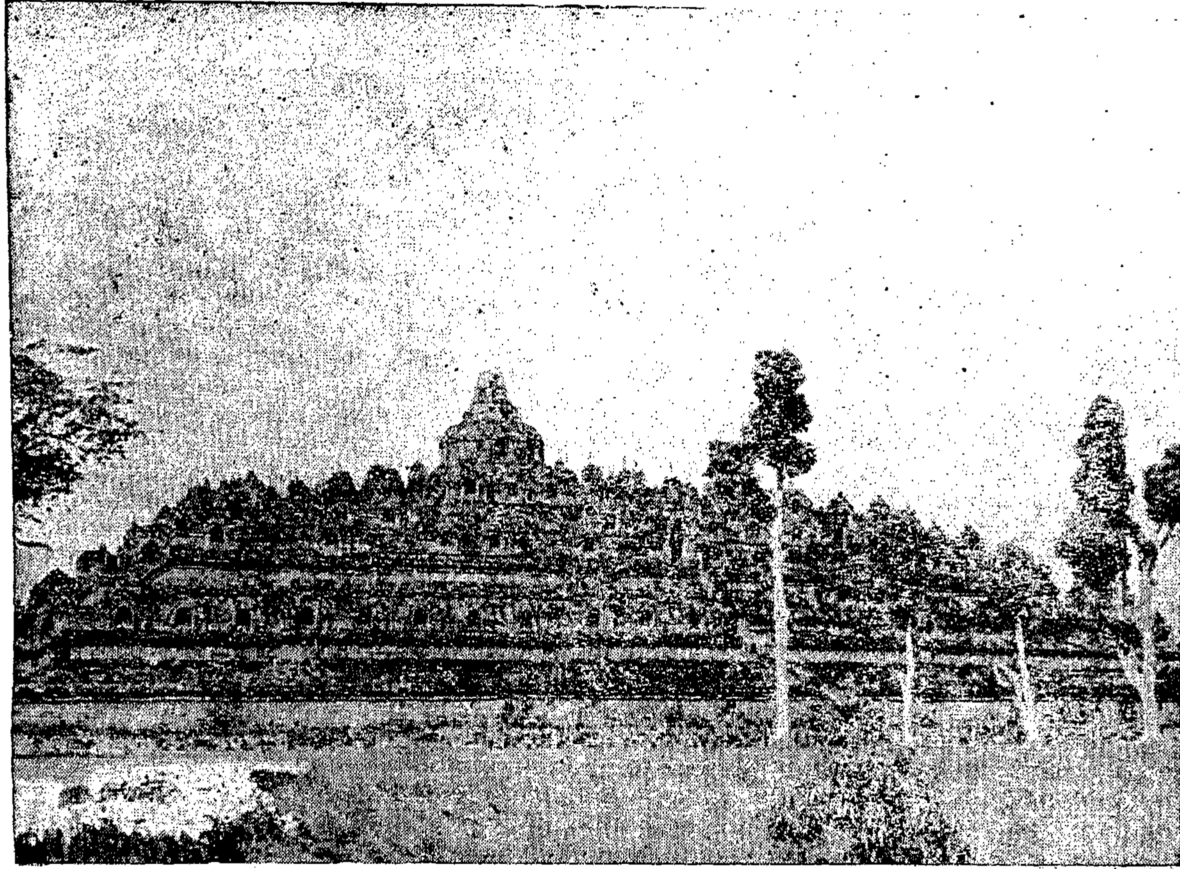




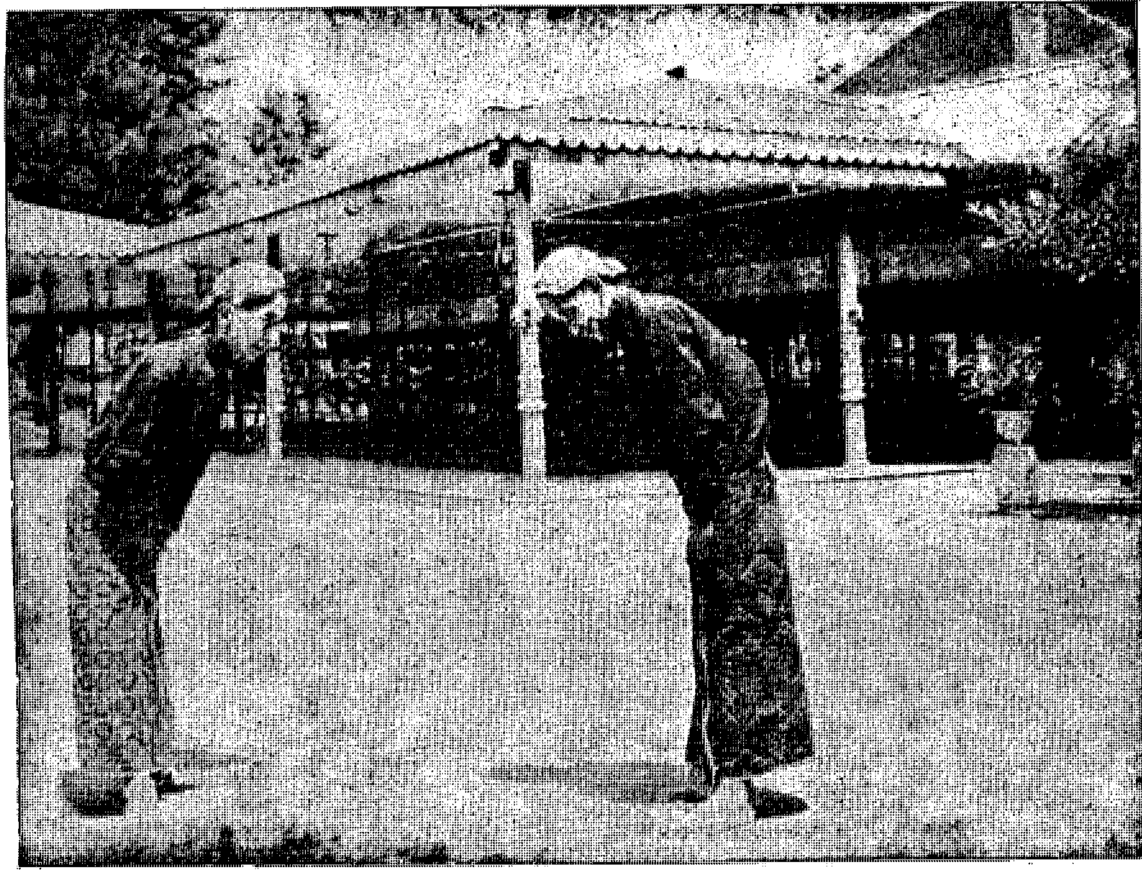
أحواض الزنبق فى الحدائق النباتية ببوجور



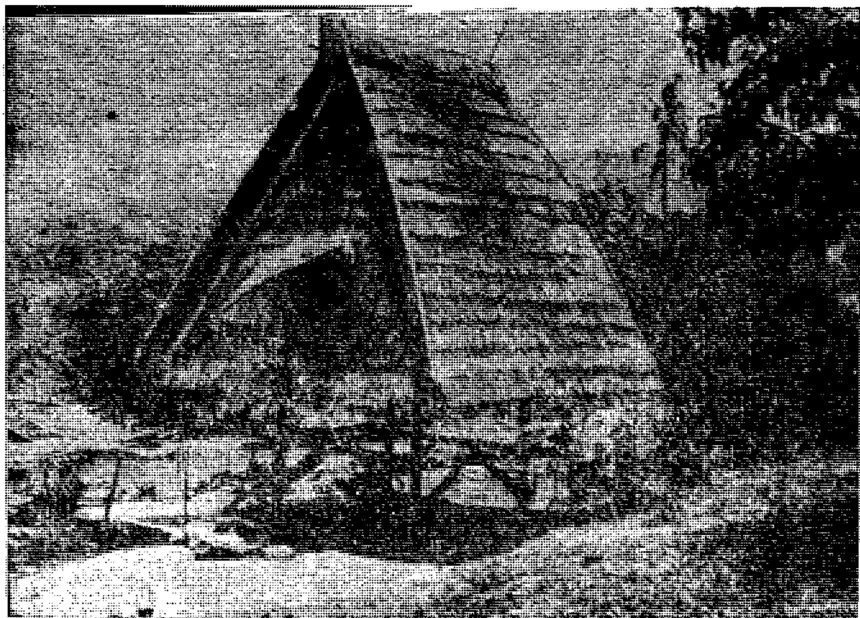
جمع العصير من شجر المطاط



بروبودور أعظم المعابد البوذية فى أندونيسيا



تغيير الحرس فى القصر الملكي بجوكرتا



بيت فى جزيرة سماوة

المصرف الأندونيسى فى جاكرتا



أحد بيوت منانجكيا والشهيرة في سومطرة





العروس تفتح الباب للعريس فى حفل زواج سوندانة



عريس وعروس فى شرق سومطرة



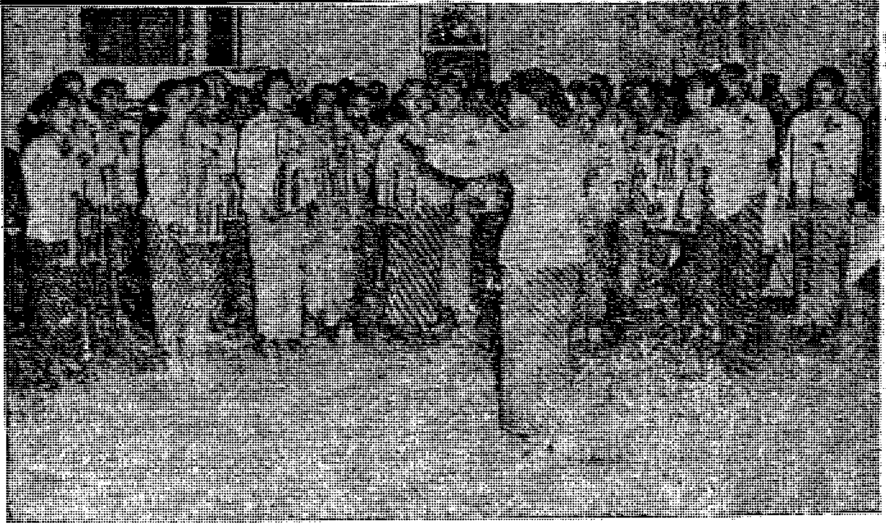
عريس وعروس فى السلبيس



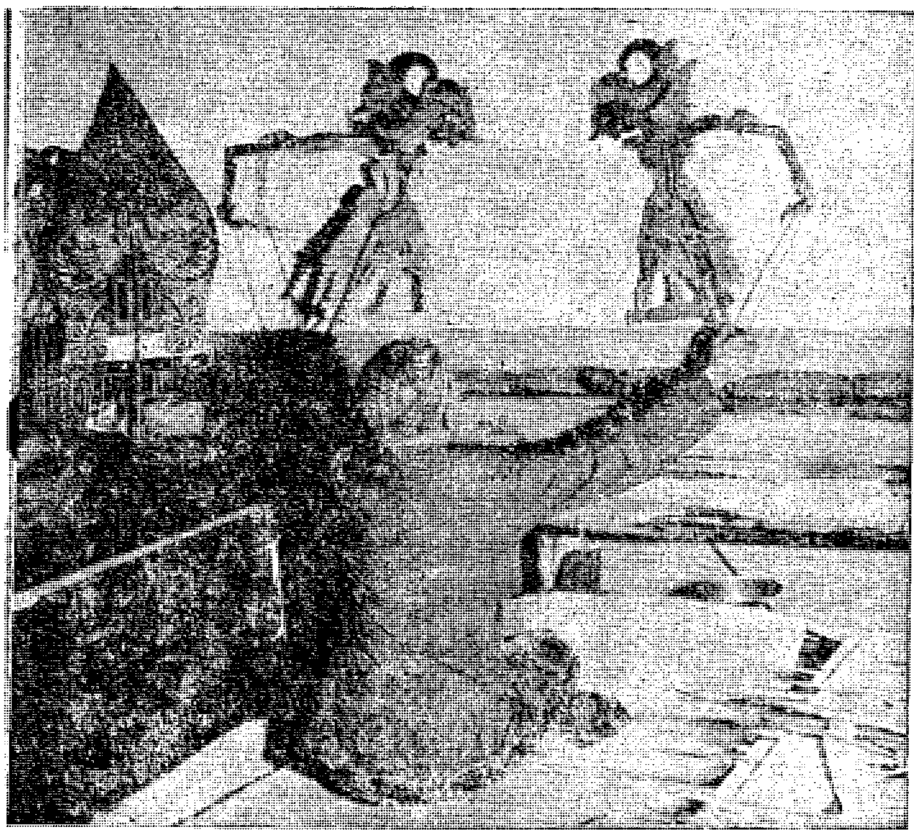
رقص وطنى فى جاوة



راقصة فى سنداانة



جوقة فتيات موسيقية



خيال الظل فيما وراء المناظر



سوكارنو ، قائد ثورة اندونيسيا وأول رئيس لجمهوريتها

وقبضوا على سلطنة بنتام ، ولكن حدث بعد ذلك بقليل أن أثار سرباتى — وهو عبد سابق من جزيرة بالى — اضطرابات أكثر ، فعومل فى مبدأ الأمر على أنه مجرد لص مغامر ، ولكنه أنشأ لنفسه دولة فى شرق جاوة وانضم إليه رجل يعرف باسم سونان ماس وهو الإبن الوحيد لسلطان متارم المتوفى قبل ذلك ، وكان هذا السلطان الشاب يعادى الهولنديين ويكرههم ، فقررت بتافيا خلعه من العرش ، واستطاعت قواتهم أن يفعلوا ذلك ، ونصبوا أحد أقربائه فى مكانه .

وحشد سونان ماس وسرباتى قواتهما فى موقعهما الحصين بشرق جاوة ، وكان على الهولنديين أو يقوموا بغزوة طويلة مرهقة قبل أن يقتلوا سرباتى ويقبضوا على سونان ماس وينفوه ، ولم يكن سرباتى قديسا ، ولا يمكن لعدة أسباب أن نجعل منه منه بطلا وطنيا ، فقتله للسفراء الهولنديين كان يشبه كثيراً خيانة الأوربيين بعد تزويد خصومهم براية السلام فى أحوال متعددة ، ولكن كانت فى روحه نزعة «أندونيسيا للأندونيسيين» فى ثورته وهو يشغل مكانا بين المناضلين فى الزمن القديم من أجل الحرية .

وربما كانت ثورة الأندونيسيين على الأجانب التى قادها

ديبونجيرو فى القرن التاسع عشر أشد أثرا وكانت أكبر ثورة إلى أن كان النضال النهائى ويطلق اسم ديبونجيرو الآن على شارع من أجمل شوارع جاكرتا ويعتبره الزعماء مقاتلا من أجل الحرية جاء قبل قرن من زمنه .

كان ديبونجيرو الوارث الشرعى للعرش ، وكان المفروض ن يكون سلطانا لجوجاكرتا ، ولكن حكومة بتافيا الهولندية قررت أن يتولى الحكم أخ أصغر كانوا يرون أنه سيكون خاضعا لتنفيذ رغباتهم ، وقد أثبت ديبونجيرو أثناء الثورة أنه مقاتل ماكر فى حرب العصابات وأنه يعرف كيف يثير الأهالى ، ولكنه كان أيضا متصوفا ، وكانت تلك النزعة جزءا من تأثيره فى العامة . وبعد أن طرد من العرش قضى فترة من حياته فى عزلة أشبه بعزلة الهندوكيين يفكر فى حياته ويعيش بين الكهوف متنقلا فى الريف ، ووجد مؤازرة من الفلاحين الذين يروون عن معجزاته أساطير ، بعضها أشبه بالأساطير التى تروى عن الملك ايرلنجا من ملوك القرن الحادى عشر .

وقبل نهاية حياته انضم إليه أيضا كثيرون من رجال الطبقة العليا .

ظل ديبونجيرو يقوم بمقاتلة الأجانب مدة خمس سنوات ، وكانت حربا محزنة فيها الموت من الكوليرا والجوع أكثر من الموت فى ميدان القتال ، ويظهر أن ديبونجيرو لم يكن على اطلاع كبير بقراءة تاريخ اندونيسيا ؛ إذ فوجىء بما حدث له حين قبل دعوة الهولنديين بأن يذهب إلى معسكرهم للتحدث فى شأن التسليم ، وفى الحال قبض عليه وأرسل إلى المنفى .

ابتدأت ثورة ديبونجيرو بنزاع على العرش ، ولكنها تحولت إلى نضال عام من الأهالى ، فكانت حقيقة من أولى ثورات النضال من أجل الحرية فهى أشبه شىء بثورة بيكون فى فرجينيا من ولايات أمريكا ، وقد حدثت قبل قرن من وقوع الثورة الأمريكية .

كانت هناك أمثلة أخرى على الوقوف فى وجه الأجانب ، منها ما كان تحت قيادة ملكات محاربات . ولكن يجب أن نذكر بوجه خاص آتشيه حيث يقيم شعب قديم لم يألف الخضوع فى الطرف الشمالى من سومطرة ، فمن بدء تاريخ اندونيسيا إلى اليوم يظهر هذا الشعب شدة مراس تذكر الأمريكيين بموقف ولاية تكساس تحت راية النجم المنفرد ، فلم يستطع أحد مطلقا أن يرغم أهل آتشيه على الخضوع لمدة طويلة ، وقد تمر على

آتشيه أوقات تكون فيها هادئة نسبيا ولكنها تعود ثانية إلى الشغب . وموقع هذه البلاد على خليج ملقا يجعل منها مكانا صالحا للقرصنة ، ويرحب الآتشيون بهذا الموقف . لقد قاوموا نوع « التهدئة » الذى قام به الهولنديون ووجدوا من السهل تطبيقه فى جهات أخرى من الجزر ، وقد بدأ أول نضال بين هؤلاء القوم وبين الهولنديين سنة ١٨٧٣ واستمر مدة تربو على ثلاثين عاما وما زالت عصاباتهم تقوم باضطرابات . تعتبر شوكة فى جانب الجمهورية . والزمن هو الذى سيثبت لنا فيما بعد ما إذا كان السلام الذى عقد فى سنة ١٩٥٩ سيستمر ، فإن آتشيه لا تمثل روح التعاون الذى يجب أن يسود الديمقراطية ، ولكن على مدى القرون كان هؤلاء القوم يمثلون روح الحماسة التى تمثل جانبا من الحركة الوطنية .

وعندما دخل العالم القرن العشرين وارتفعت مكاسب المساهمين من الآجانب ارتفاعا هائلا لم يعرف من قبل ، كان من البين أن الأندونيسيين لا يستمرون إلى الأبد ولهم صوت ضعيف فى أمور أنفسهم وكان من الواضح أنهم لو أعطوا هذا الصوت فإنهم سيحاولون تحويل شيء من هذه المكاسب إلى التعليم والصحة وتحسين أحوال المعيشة وغيرها من الامور النافعة لهم .

ففى دراسة أمريكيه لدخل الفرد فى ثلاث وخمسين دولة أجريت فى نهاية الحكم الهولندى قبل تمام الحرب العالمية الثانية مباشرة كان ترتيب اندونيسيا ٥٣ بين الدول ومتوسط دخل الفرد ٢٢ دولارا فى السنة . وفى بلاد زراعية مثل اندونيسيا ليس من السهل تقدير الدخل الذى يكون على هيئة طعام يزرع ويؤكل ، ومع ذلك فإن وضع اندونيسيا فى آخر القائمة — مع ما أضفته من الثراء على هولندة على مر السنين — أثار سخط الوطنيين واستعمله الشيوعيون بالطبع حق الاستعمال فى دعايتهم .

وكان جميع الأندونيسيين تقريبا قد وصلوا إلى النقطة التى لا يقبلون فيها غير الاستقلال الحقيقى بديل ، وكانوا يشعرون بالمرارة لأنصاف الحلول التى يحاول بها الهولنديون تأجيل اليوم الذى لا بد منه حين يتولى الأندونيسيون أمورهم بأنفسهم ، وكان خطأ ارتكبه الهولنديون فى القرن العشرين أنهم ظلوا إلى لحظة الاستقلال ، بل حتى بعده ، لا يصدقون أن حركة الاستقلال حقيقية .

كانت الروح الوطنية تتدفق كالفيضان الذى يبدأ من

مجارى مياه صغيرة فوق التلال البعيدة ثم يتجمع تدريجيا ويتألف منه نهر جار رهيب . وكان الموظفون يظنون أن الوطنيين أن هم إلا مجموعة من « مثيرى الاضطرابات » يمكن وقفهم عند حدهم باليد القوية ، ويشعرون أن الهولندى الذى يؤيدحكم الأندونيسيين لأنفسهم بأنفسهم ، إن هو إلا خائن لوطنه . ولكن روح الاستقلال كانت تقوى وتزداد قوة ، وكانت الحوادث التى تجرى فى جهات أخرى من آسيا تشجع على ذلك .

إن إنتصار اليابانيين فى الحرب بين روسيا واليابان سنة ١٩٠٥ أثبتت أن الآسيويين يستطيعون هزيمة الغربيين ، وكانت ثورة الصين سنة ١٩١١ التى هزت أرجاء العالم تثبت أن الشعوب الآسيوية تستطيع أن تسيطع على أقدارها وتلقى بعيدا بنظام عتيق عفى عليه الزمن .

وجاءت أنواء قوية كثيرة من الخارج ، والواقع أن حركة الاستقلال الحقيقية انتشرت بأكثر قوة فى تلك الأجزاء من البلاد التى لها أكبر اتصال بالعالم الخارجى ، وكانت أقوى المؤتمرات الثلاثة الآتية من الخارج ، ودخلت عليها تعديلات

كبيرة فى اندونيسيا كما هى الحال دائما ، هى الفكرة الأوربية عن العدالة الاجتماعية ، والحركة الجديدة فى الإسلام التى حاولت الجمع بين الاصلاح الاجتماعى والسياسى وبين الدين ، ثم فكرة الشيوعية الدولية .

ومن أوائل الجمعيات التى عملت على خلق حركة وطنية على نسق اندونيسى بحت كانت جمعية « بودى ابتومو » (أى رمعة المقاصد) التى ألفها ثلاثة من طلبة الطب فى سنة ١٩٠٨ لتشجيع الاهتمام بالحضارة الاندونيسية ، وصار أحد الثلاثة وهو « سوتومو » فيما بعد من أهم زعماء حركة التحرير . أما الجمعية نفسها فكانت نزعتها ثقافية بحيث لم تجد تأييدا فى جمهور العامة ولكنها كانت ذات فائدة فى وضع جذر محلية للحركة التى تبنت فى الكثير آراء من الخارج .

وقد جذبت الديمقراطية الاشتراكية من النوع المعروف فى أوربا أولا الهولنديين المذمرين والآسيويين المتأثرين بأوربا والصينيين ، ومنهم انتقلت الآراء الاجتماعية الرادفكالية إلى جزر الهند الشرقية . وكانت أهم المسائل فى حركة الاستقلال هى : هل يمكن بلوغ الحرية والديمقراطية دون الوقوع فى مصيدة الشيوعية .

كان الدين هو القوة الأساسية التى تمنع الشيوعيين من تحقيق غرضهم وهو الاستيلاء على الحركة الوطنية . وكانت أهم المنظمات الإسلامية الجماعة المسماة « سريكات اسلام » وهى جماعة تأثر أفرادها كثيرا بالتعاليم الإسلامية « الحديثة » فى الشرق الأدنى ، وكانت لهم حيوية جديدة فى نزعتهم الإسلامية ، وفى الوقت ذاته يعمرن فى سبيل الاصلاح السياسى والاجتماعى ، وكانت سريكات اسلام ، هى الجانب الشرقى المتطرف فى هذه الحركة وكانوا عازمين على أن يظلوا مسلمين واندونيسيين وغير شيوعيين .

وكان أحد زعماء جمعية سريكات اسلام هو حاجى عجوز سالم (حاجى أى أنه قام بفريضة الحج إلى مكة المكرمة) وكان من أكبر المستنيرين فى حركة التحرير ، ثم كان وزيرا للأمور الخارجية فى الجمهورية ، وفى أحد أدوار النضال لإبعاد الشيوعيين قال الحاج : أنه لا يحتكر الآراء التقدمية . وقال : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ينادى بالاقتصاديات الاشتراكية قبل اثنى عشر قرنا من ولادة كارل ماركس .

وقد فشل الشيوعيون فى محاولاتهم كسب هــــذه الجمعية

إلى صفوفهم ، ولكنهم تقوموا في جهات أخرى ، ففي منتصف سنة ١٩٢٠ وجدت حركة شيوعية خفية ، ولكن من الغريب أنها لم تكن تجد في بادىء الأمر تشجيعاً من موسكو ، وقد قامت ثورة شيوعية في سنة ١٩٢٦ ولكن لم يؤيدها الكرملين لأن لينين وغيره من الزعماء الروس لم ينتظروا للشيوعية النجاح في بلد كان في نظرهم متأخراً ، فظل زعماء حركة الشيوعية العالمية في موسكو يصدون منظمي الحركة المتعجلين في أندونيسيا . ولكن فيما بعد شعر زعماء السوفييت أنهم كانوا مخطئين وبدأوا هم والشيوعيون الصينيون يفكرون أن أندونيسيا مساحة هامة لنشاطهم ، وكادت الشيوعية تستولى على الحركة الثورية في أحرج لحظاتها وزاد الحزب الشيوعي في عدد أعضائه وفي نفوده منذ الاستقلال .

ولكن العالم الجديد عرف كيف يقوم بدوره أيضاً . ويجب أن نضع في مكان ممتاز من قائمة المؤثرات الخارجية نظريات حقوق الإنسان التي أعلنها زعماء الثورة الأمريكية ثم عاد زعماء الثورة الفرنسية يكررونها بطرق أخرى .

وحين استولى رجال الثورة الفرنسية على الهيئة الحاكمة في

هولندة وأدخلوا المبادىء الجديدة عن الحرية والمساواة والأخاء، كتب الموظفون المستعمرون فى بتافيا إلى بلادهم فى شىء من الذعر يسألون عما إذا كان يقصد تطبيق هذه النظرية فى جزر الهند ، فأخبروا بألا يشغلوا أنفسهم بهذا ، فإن النظرية الجديدة صالحة لأوربا ولكنها بطبيعة الحال غير صالحة لأندونيسيا المتأخرة .

ومع ذلك ظلت الآراء الخطرة تتسرب بالرغم من مجهودات بتافيا . وأنا لنجد لدى المثقفين فى أندونيسيا احتراماً كبيراً لزعماء الثورة الأمريكية لا سيما الرجال من طراز جيفرسون الذى كان نبيلا فى تعبيره عن نفس الآراء التى يحاولون تحقيقها ،

كانت الروح الوطنية مركزة فى جاوة ، وهى أغنى الجزر وأكثرها سكاناً وأقربها تأثراً بالآراء الواردة من الخارج ، ولكن حدثت أيضاً حركات من أجل الاستقلال والديمقراطية الاشتراكية فى الجزر الخارجية أيضاً لا سيما سومطرة ، على أن فكرة ضم جميع الأقسام معاً كانت بطيئة فى تكوينها . وظن كثيرون من الأندونيسيين فضلا عن الهولنديين أنها لن تتحقق . ومن عجيب الأمر أن اثنين من الأعداء الأجانب — هولندة واليابان — هما صاحبتا الفضل فى تحقيقها .

ربما كانت وحدة النظام الهولندى داخل مستعمرتهم هى السبب الأساسى فى وجود جمهورية أندونيسيا اليوم ، ولو ترك الأمر للأندونيسيين وحدهم دون أن يكون هنالك نظام هولندى مركزى لكان من المحتمل جداً أن تسلك الجزر فى أنظمتها مسلكاً مختلفاً بالرغم من وحـــدة الجزر فى حياتها الثقافية عامة .

ولقد بذل الهولنديون كل ما وسعهم لمنع الاتحاد الأندونيسى. والمثال على ذلك أنهم حرموا استعمال كلمة « أندونيسيا » ، وكانوا بين وقت وآخر يحرمون استعمال اللغة الوطنية فى نموها ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون القيام كمديرين استعماريين دون اتباع نوع من الوحدة التى يضطرون إليها فى المعاملة وهو النظام الذى اقتبسه الإندونيسيون .

ولكن إذا كان الهولنديون وضعوا الأساس فإن اليابانيين هم الذين حددوا الوقت المناسب ؛ لأن غزو اليابانيين لجزر الهند فى سنة ١٩٤٢ وحوادث الحرب العالمية الثانية أسرعت بحدوث الاتحاد والحرية ، فلولا اليابانيون لاستطاعت هولندة فى رأى كثيرين من الهولنديين أن تضع نظاما للحكم الذاتى داخل نظام

هولندى مثل الكومنولث البريطانى، على أن الهولنديين تأخروا في الأمر طويلا ولو أن أصحاب هذا النظام الإصلاحى سمح لهم بأن يفعلوا ما يشاءون لما استطاعوا أن يعوضوا الوقت الذى ضاع بتردد الهولنديين ، فى حين كانت الهند البريطانية مثلا تستعد للحرية .

وفى تطور الحرب العالمية الثانية احتل الألمان هولندة فى سنة ١٩٤٠ وكان احتلال اليابانيين لجزر الهند الشرقية وتعهدات الدول بموجب ميثاق الأطلنطى وإعلان الأمم المتحدة . كل ذلك يؤكد أن النظام القديم للأمور لن يستأنف بعد الحرب ، وكانت المسألة الكبرى عما إذا كان يفرض نوع من الإشراف الهولندى مرة أخرى أو تكون أندونيسيا حرة تماما — هذا إذا كانت الشيوعية لا تقضى على الحرية وعلى الإستعمار الرأسمالى معا .

وفى بدء الحرب العالمية الثانية شعر بعض الوطنيين الأندونيسيين أن نوعا من التحالف الأسيوى سيؤدى إلى تخلصهم من قبضة الهولنديين . وقال هؤلاء الناس أنه لا شأن لهم بالحوادث التى تجرى فى أوربا .

ورأى آخرون أن نظام هتلر يهدد الحرية فى كل مكان ، وكانوا يؤمنون بمبادىء ميثاق الأطلنطى الذى وقعه الرئيس روزفلت ورئيس الوزراء تشرشل ثم وقعته دول أخرى من بينها هولنده ، بل أن العلامات التى بدأت تشير إلى أن اليابان ، وهى الدولة الآسيوية الكبرى ، ستنضم إلى جانب ألمانيا ، لم توقفهم فى تأييد الحرب ضد هتلر ، فكانوا معارضين للهولنديين ولكنهم غير معارضين للحلفاء ،

وحتى قبل بيرل هاربر ودخول أمريكا الحرب معهم كان اليابانيون يتحركون جنوباً إلى مواطن البترول والمطاط والقصدير والمواد الغذائية فى الجنوب الشرقى لآسيا ، وكان من البين أن غزواً سيتم ، وكان من الواضح تماما أن القوات الصغيرة للحلفاء لن تستطيع وقف اليابانيين، وفضلا عن ذلك كانت هنالك أسطورة قديمة تزعم أن شعباً قريب الشبه باليابانيين سيأتى يوما ليطهر أرض أندونيسيا من الغزاة الأجانب ،

كان الغزو اليابانى فى سنة ١٩٤٢ واستولوا على الجزر سريعا وطردوا الهولنديين وغيرهم من قوات الحلفاء أو أسروهم وتولوا جميع الأمور فى الجزر وأظهر اليابانيون فى الحال أنهم متحمسون

جداً لفكرة استقلال أندونيسيا ، وقالوا أنهم جاءوا ليخلصوا السكان المساكين من قسوة الحكم الأوربى .

وكان عند الاندونيسيين مواضع شكوى حقيقية كما رأينا ، فكان للدعاية اليابانية تأثير كبير فى النفوس . وتألفت جمعيات ووحدات عسكرية تحت رعاية اليابانيين وكانت تعلن عن مراميها فى بيانات خلابة لا ريب فى أن يرضين عنها الوطن الأندونيسى .

وفهم كثيرون من الاندونيسيين الحيلة فى الحال ورفضوا الاتصال بمثل هذه المنظمات ، ولكن كثيرين اشتركوا فيها . البعض لأطماع فى نفوسهم . والبعض لأنهم خدعوا ، والبعض لأنهم ظنوا فيها الطريق إلى الحرية نهائياً .

وكان من بين هذه الجماعة الأخيرة اثنان هما أشهر رجال أندونيسيا قاطبة وهما ؛ سوكارنو وحتى ، اللذان صارا فيما بعد رئيسا للوزارة ونائب الرئيس للجمهورية .

قد فعل هذان « المتعاونان » ذلك عن قصد وباتفاق مع كثيرين من أبرز زعماء الثورة ، وكانت الفكرة أن بعض

يكونون متعاونين فى الظاهر مع اليابانيين ، ويقوم البعض بحركة سرية خفية ، والبعض يقصدون التلال حيث ينظمون عصابات قتال على الطريقة التى ألفها الاندونيسيون من زمن بعيـــد .

وكما كان الأمر فى حركات المقاومة فى أوربا فى أثناء الاحتلال الألمانى لعب الشيوعيون دورا كاملا ونافعا إلى جانب غير الشيوعيون أكثر الوقت ، ولم يتحولوا الا بعـــد ذلك إلى غرضهم الأساسى ، وهو خدمة الشيوعية العالمية قبل قضية الحرية فى اندونيسيا ، وإلى ذلك الوقت كان مرماهم الأول التخلص من اليابانيين ، والثانى منع عودة الهولنديين ، والأخير تقرير نوع الحكم الذى تريده البلاد ، وفى تلك اللحظة كانت الآراء البعيدة موضوعة إلى جانب .

ثم تجلى قليلا قليلا أن غرض اليـــابانيين هو التسلط ووضع اندونيسيا تحت عبودية لم يحلم بها الهولنديون ، وبالرغم من أن اليـابانيين كانوا اخوة آسيويين ويؤيدون الاسطورة القديمة عن المنقذين الصـــفر الوجوه ، الا أن الاندونيسيين تحققوا قبل نهاية الحرب بزمن طويل أن الحياة

فى ظل حكومة خاضعة يقيمها اليابانيون ستكون أسوأ وأقل جاذبية من الحياة تحت الحكم الهولندى .

ولما اقتربت نهاية الحرب حاول اليابانيون أن يحسنوا الأمور بأن يتقدموا بالاستقلال للاندونيسيين ، ولكن جماعة قوية من الوطنيين كانت تتعارض فى قبول أى شىء على سبيل الهدية من جيش غزا البلاد ، وقامت مناقشة كبيرة بين الزعماء وفى إحدى اللحظات خطف سوكارنو وحتى ، ليحال بينهما وبين اصدار بيان لا يوافق عليه الزعماء الآخرون . وأخيرا وافق أكثر الزعماء وقرأ سوكارنو بيانا قصيرا تعلن فيه اندونيسيا استقلالها فى ١٧ من أغسطس سنة ١٩٤٥ وقد حصن الاندونيسيون المؤيدون أنفسهم فى محطات الراديو والتلغراف ليبلغوا النبأ إلى جميع أنحاء البلاد .

بدأت جمهورية اندونيسيا أولى خطواتها . وكان السؤال هو كيف تستطيع العيش طويلا بين الأخطار الكثيرة التى تهددها . فالهولنديون يريدون استرداد مستعمرتهم ، والشيوعيون يريدون أن يتولوا أمور الثورة خدمة لأغراضهم ، ولم يكن أحد يعرف ما اذا كانت المناطق المختلفة تتفق حقا لتأليف وطن واحد .

الفصل الثامن

النضال في سبيل الحرية

ان اعلان الاستقلال أمر ، إلا أن تثبيته فى الواقع أمر آخر يختلف اختلافاً كبيراً كما يعرف الأمريكان والأندونيسيون من تاريخ نضالهم من أجل الحرية . فإعلان الرئيس سوكارنو فى سنة ١٩٤٥ كان بدء نضال مرير ظل أكثر من أربع سنوات قبل أن يكتسب الاستقلال الحقيقى .

أراد الهولنديون بطبيعة الحال أن يعودوا إلى إدارة مستعمرتهم فى أسرع وقت ممكن ، وظنوا أن أمريكا وبريطانيا وغيرهما من الحلفاء فى القتال ضد ألمانيا واليابان لا بد أن يعاونهم على مقصدهم ، وكان الشيوعيون فى هذه الأثناء يتحدثون عن الاستقلال للبلاد ولكنهم فى الواقع يريدون أن يستعبدوها تحت زعامة الاتحاد السوفيتى ، وكأن ذلك لم يكن بكاف لجمهورية ناشئة. فقد أخذ الأندونيسيون يختلفون بعضهم مع بعض على مستقبل بلادهم الجديدة ، وكان البعض مخلصين فى وطنيتهم ولكنهم

يختلفون فى الوسائل ، والبعض يحاولون السيطرة الشخصية أو الوصول إلى غرض خاص .

فبينما كان اليابانيون هم المسيطرين على الجزر كان القائمون بالمناوشات ورجال المقاومة الخفية من الأندونيسيين يدبرون ثورة يكون وقتها غزو الحلفاء المنتظر . ولما جاءت الأنباء بتسليم اليابانيين للحلفاء بقيادة الجنرال ماك آرثر فى أغسطس سنة ١٩٤٥ بسبب القنابل الذرية ، وكان ذلك قبل أشهر من الموعد المنتظر تحرك الأندونيسيون لنزع السلاح من الجنود فى الجزر .

ولكن القيادة العليا للحلفاء لم تقدر قوة الحركة الاستقلالية فأخبرت الجنود اليابانيين فى الجزر أن يحتفظوا بأسلحتهم ويحافظوا على النظام وينتظروا وصول قوات الحلفاء قبل التسليم . وكان من الصعب على الأندونيسيين أن يفهموا ذلك بعد انتظارهم طويلا ، ولكن كان أمامهم ماهو أسوأ من ذلك .

جاء الجنود البريطانيون فى البداية ولم يكن الأندونيسيون ليستاءوا منهم ، على أن الجنود الهولنديين بدأوا يصلون تحت حماية البريطانيين ، وطالب الهولنديون اعتقال سوكارنو وأخذوا

يحاولون إقناع حلفائهم بأن حركة الاستقلال المزعومة إن هى إلا مؤامرة يابانية ، وأن الزعماء الأندونيسيين إن هم إلا ألعوبة وخونة .

ووقعت أثر ذلك حوادث محزنة لاسيما فى القتال المرير فى سورابايا حيث لم تستطع الحكومة الوطنية مقاومة قوات نصف منظمة انقضوا عليها ، وارتكبت فظائع من الجانبين .

وبعد مناقشات طويلة وبعض القتال عقدت هدنة بين الأندونيسيين وبين الهولنديين فى نوفمبر سنة ١٩٤٧ وتبعها الاتفاق على تأليف « الولايات المتحدة الأندونيسية » وتكون جمهورية أندونيسيا إحدى ولاياتها . أما الولايات الأخرى الفدرالية ، فهى حكومات نظمها الهولنديون من أقسام أخرى من الجزر ورأى شعب الجمهورية فى هذا الاتفاق أنه مجرد فكرة لعودة الحكم « غير المباشر » القديم فى إطار جديد ، وفى الشهور القليلة التالية كانت هنالك مناقشات ومباحثات عن طريقة تنفيذ الاتفاق ، وفى يولية سنة ١٩٤٧ قام الهولنديون بهجوم واسع النطاق على أراضى الجمهورية .

وكان الفضل لهيئة الأمم المتحدة فى إنهاء هذا العدوان الحربى

فى يناير سنة ١٩٤٨ ، ولكن بعد أن انتقصت أراضى الجمهورية واقتصرت على قسم من جاوة وقطعة صغيرة من سومطرة وكانت عاصمة الجمهورية فى جوجاكرتا ، أما الهولنديون فبقوا فى بتافيا .

وبعد ذلك ببضعة أشهر اختار الشيوعيون القيام بثورة داخل الجمهورية ، وشغل زعماؤها كثيراً بالقضاء على الثورة الشيوعية بيد ، ومحاولة حمل الهولنديين على الاحتفاظ بخطوط الهدنة باليد الأخرى .

ضيق على الجمهوريه فى مساحتها الصغيرة ، ونشط الهولنديون فى تنظيم الأقسام الأخرى فى الجزر ، وكأن الأمور تسير بالأمة الأندونيسية مرة أخرى إلى آخر الطريق . وأخيراً توقفت المناقشات حول اتفاق الجمهورية ، وأرسلت جنود القومندو بحاملات الجنود .

وأسر الرئيس سوكارنو وغيره من الزعماء واحتلت المدن الكبرى فى جاوة وكأن الستار يسدل نهائيا ولكن الأندونيسيين رفضوا التسليم .

وكان الزعماء الذين أخذوا إلى الأسر فى جوجاكرتا فضلا عن سوكارنو ، منهم حتى وشاهرير وحاجى عجوز سالم ، فمن هم

هؤلاء الناس ؟ وماهى صفاتهم ؟ لعل الوقت مناسب لذكر بعض الوقائع عن هؤلاء الرجال الذين كان لهم تأثير قوى فى الشعب ، حتى أنهم ، وهم فى الأسر ، كانوا قلب الثورة .

ان الرئيس سوكارنو له شهرة هو جدير بها بأنه من أعظم سحرة الجماهير فى العالم الحديث ، وهو دائما أنيق الثياب ، عليه سيما القوة « الاندفاع » مع ابتسامة جذابه ، وله قوة تكاد تكون سحرية وتأثير عجيب فى تحدثه للجماهير ، وقد ولد ليكون أستاذاً للاجتماعات والحفلات ، وفى بهجة ونشاط يقبل أية فرصة ليكون منظما لاجتماع أو حفلة غناء أو حفلة رقص شعبي أو ثورة . وهو — على أنه رئيس جمهورية — يفضل أن يدعى « بنج سوكارنو » وكلمة بنج معناها أخ « وتستعمل لدعوة خدم المطاعم أو أمثالهم ، وصارت رمزاً للمشاواة فى أثناء الثورة .

وفى أثناء أطول زيارة له للولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٥٦ كانت شخصيته الجذابة تكسب الأصدقاء فى كل مكان ، وقدقام بزيارة خاصة لمونتشللو لإعجابه الشديد بجيفرسون . وحين نشرت ترجمة لكتابات جيفرسون بالأندونيسية منذ

بضع سنوات كانت ملاحظات سوكارنو عن جيفرسون فى أثناء زيارته لولاية فرجينيا هى مقدمة الكتاب .

درس سوكارنو ليكون مهندساً ، ولذلك يشار إليه أحياناً بلقب اير سوكارنو ، أى المهندس سوكارنو ، ولكن مهنته الحقيقية هى الزعامة ، وكثيراً مايستعمل الغربيون اسمه الأول وهو أحمد فى الكلام عنه ، إذ لايألفون العادة الأندونيسية بإطلاق اسم واحد ، على أن أكثر مواطنيه لايشير إليه إلا باسم بنج سوكارنو .

ويقول خصومه أنه كان مثيراً للغوغاء ، وباحثاً عن السلطة بالتأثير فى الجماهير ، ويرى المعجبون به أنه عبر حقا عن آراء الشعب وآماله ، وأنصاره على كل حال هم جمهرة الشعب أكثر من من الأندونيسيين الذين تثقفوا فى الغرب ، وكثيرون منهم غير راضين عن قبوله المساعدة الشيوعية .

ومهما تكن نتائج السياسة التى يتبعها سوكارنو فيما بعد ، فيجب ألا ننسى أنه الرجل الذى عمل أكثر من أى إنسان آخر على ضم أجزاء الوطن وقاده فى خطوب الثورة وأنه هزم الثوار الشيوعيين والمستعمرين الهولنديين وحافظ على أندونيسيا دولة مستقلة .

ومحمد حتى هو مثال المتعلم المثقف، منطق فى تفكيره ، وله تأثير كبير فى المثقفين ، وكان شريك سوكارنو من مدة طويلة فى الثورة ، وكان زميلا متآلفا معه ، وكانا معاً هما البطلين الأساسيين لحركة الاستقلال ، وقد عمل « حتى » وهو طالب جامعى فى هولندة على تأليف جمعية الاستقلال الأندونيسى ، وبعد اعتقال الهولنديين لسوكارنو عاد « حتى » إلى جزر الهند فى سنة ١٩٣٢ ، وتولى إدارة ذلك القسم من حركة الحرية الذى صار فيما بعد رأس الحركة وقلبها ، واعتقل هو بعد ذلك بسنتين وظل معتقلا ثمانى سنوات ، أولا فى مركز ناء من جزيرة غينيا الجديدة يقع فى الغابة ، ثم فى إحدى جزر باندا .

وكان سوكارنو وحتى متزاملين فى أثناء الثورة والأيام الأولى من الجمهورية حتى صار يجمع بين اسميهما فيقال « سوكارنو — حتى » فى التعبير ، حتى لكأنهما اسم واحد ، وكان من الطبيعى فى أوقات مختلفة أن يلقب « حتى » بلقب نائب رئيس الجمهورية ، أو رئيس الوزارة ، وأن يكون العامل الأساسى فى توجيه السياسة الوطنية فى لحظات حرجة كثيرة ، وقد استقال من منصب نائب رئيس الجمهورية سنة ١٩٥٦ ، وانتقد سوكارنو علناً فى بعض الإجراءات فى السنوات الأخيرة ، وهذه القطيعة بين

الزعيمين الكبيرين مصدر حزن للكثيرين من الأندونيسيين .

وكان سوتان شاهرير أحد الزعماء الذين اعتقلوا حين أرسل الهولنديون جنوداً بالطيارات إلى جوجاكرتا سنة ١٩٤٨ رفيقاً لحتى فى السجن والاعتقال ، وكان أيضاً طالباً جامعياً فى هولندة ، وعاد إلى وطنه حين عاد إليه ورسائله المؤثرة الجذابة إلى زوجته الهولندية التى نشرت بأمريكا فى ترجمة انجليزية تحت عنوان «من خارج الاعتقال» تظهر عمق التجربة الروحية والثقافية التى مر فيها الرجلان ، ويظهر أنهما قرآ فى ذلك الوقت كل ما يمكن قراءته تقريباً من الكتاب المقدس إلى ماركس وفرويد .

وفى اللحظة الأخيرة قبل غزو اليابانيين للبلاد مباشرة شعر الهولنديون بأن الوطنيين من الأندونيسيين مثل حتى وشاهرير قد تكون لهم فائده فى الدفاع عن البلاد ، فعملوا على أن يطير قارب هوائى — وهو من أواخر ما بقى من طراز كتالينا — من القاعده فى أمبون وأن ينفلت إلى جزر باندا ويلتقط حتى وشاهرير ويأتى بهما إلى جاوه .

وقد شغل شاهرير منصب رئيس الوزاره ثلاث مرات ، وكان مفاوضاً أساسياً مع الهولنديين ، وكان أهم الأندونيسيين

جميعاً فى إعلان قصتهم للعالم حين جاء إلى نيويورك ليعرض القصة على الأمم المتحدة .

وكان قبول شاهرير للعوامل الوطنية لدى سوكارنو التى دفعت به للتعاون البارز مع اليابانيين فى أثناء الحرب أمراً مقنعاً؛ لأن شاهرير نفسه اختار الطريق الخطر وهو المقاومة السرية ، وكان له تنظيمه الذى يديره وهو يتنقل فى أنحاء جاوه ويزعم أنه من العمال عند أحد أقاربه ، وكان على صلة بالجماعات الاخرى ، ومنها الشيوعيون ، وكان يجتمع سراً بحتى فكان المتعاونون والمقاومون يعرفون بذلك ما يعمل كل منهم .

وقد توفى حاجى عجوز سالم فى سنة ١٩٥٤ . وكان الرجل الشيخ العظيم فى الاستقلال الاندونيسى ، وكان — على إسلامه — تقياً حج بيت الله سبع مرات إلا أنه كان متيقظاً لكل اتجاه جديد فى الدراسات العالمية ، وقد ألقى محاضرات فى عدد من الجامعات وكان الكثيرون من الذين يعرفونه فى العالم يلقبونه بالسيد « أندونيسيا » . وكان يجمع بين الحضارة الحديثة والتقوى فى موقفه نحو الديانة الإسلامية . وقد ساعد على حماية الفرع الإسلامى من حركة الاستقلال من الوقوع فى الشيوعية ، فهو بجسده

الضئيل ووجهه الذكى المرح كان يمثل صفات الذكاء مع النزاهة وهى صفات يقدرها جميع الأندونيسيين ، وقد شغل منصب وزير الخارجية عدة مرات ومثل بلاده خير تمثيل أمام العالم .

اعتقل الهولنديون هذه الجماعة ولكن الثورة استمرت يقوم بها آخرون فى شجاعة ، وقد ألفت حكومة مؤقتة فى سومطرة بعيدة عن وصول الهولنديين وظل القتال مستمراً فى شجاعة بجاوة تحت قيادة الجنرال سوديرمان الذى كان مريضاً فى آخر أيام الحياة ، ومع ذلك استمر يقود الجنود حتى بعد أن بلغ به المرض مبلغا اضطر معه أن يحمل من مكان إلى مكان .

وكان فى كل مرة يعرض فيها الهولنديون عقد هدنة يطلب الأندونيسيون إطلاق سراح سوكارنوا وزملائه أولا ، والموافقة على عودة عاصمة الجمهورية إلى جوجاكرتا ، ونشطت من جديد لجنة الأمم المتحدة التى كانت قد عينت من قبل ، وكان الأندونيسيون يتساهلون أحياناً تحت إلحاح الولايات المتحدة الأمريكية . وبالرغم من أن الهولنديين يلومون أمريكا ويتهمونها بتأييد الأندونيسيين فى النضال فإن الأندونيسيين يرون أن الأمريكيين لا يفهمون الأحوال فى جزر الهند الشرقية تماماً ، ولذلك كثيراً

ما قبلوا مزاعم الهولنديين فى سهولة وكانوا يضغطون على الجمهورية فى مواضع تقضى بأن يتمسكوا بها .

وكان الرأى العام فى أمريكا من مبـــدأ الأمر مؤيداً للجمهورية كل التأييد ، ولـكن الحـكومة الأمريكية كانت مهتمة بالدفاع عن أوربا أمام التهديدات الحربية الروسية وأمام اجتياح الشيوعيـة للدول الأوربية الضعيفة ، لذلك لم تـكن تريد أن تفعل شيئا فى جزر الهند قد يضعف هولندة فى موطنها . على أن الأندونيسيين وأصدقاءهم من الولايات المتحدة كانوا يقولون إن آلاف الجنود ومئات الملايين من الدولارات التى يستعملها الهولنديون فى محاولتهم احتلال جزر الهند من جديد قد تستعمل على وجه أفيد فى أوربا ، ثم أوضحوا أن المال الذى تصرفه هولندة على الحركات العسـكرية فى جزر الهند يكاد يكون معادلا لمجموع الإعانات التى تأتيها من أمريكا بموجب نظام مارشال .

ولـما عرفت الحقائق فى أمريكا توجه الرأى العام بالطلبات ووجه بعضها فى مجلس الشيوخ الأمريكى بألا تساعد هولندة فى بلادها حتى يوقفوا قتالهم للأندونيسيون ، أو على الأقل يعودوا إلى الخط المتفق عليه فى الهدنة .

وفى الوقت ذاته أعلنت دول آسيوية كانت من قبل لا تتدخل مطلقاً فى أمور العالم تأييدها لاندونيسيا وانتهز الإتحاد السوفييتى وهو دائما يحب أن يقف موقف الصديق للشعوب الآسيوية فأبدى تأييده الكامل أيضا .

وأخيراً تحت الضغط من جهات متعددة ، أطلق سراح الزعماء وعادوا إلى جوجا كرتا ، وعقد مؤتمر بين الأندونيسيين والهولنديين فى لاهاى ، وهنالك فى ٢ من نوفمبر سنة ١٩٤٩ تم توقيع اتفاق يعترف بجمهورية أندونيسيا كدولة ذات سيادة فى جميع جزر الهند الشرقية الهولندية سابقا فيما عدا غينيا الجديدة التى يؤجل أمرها لمفاوضات تالية ويكون بين الدولتين اتحاد أندونيسى هولندى تحت الزعامة الرمزية لملكة هولندة على النسق تقريبا الذى تشترك فيه استراليا أو كندا ، وكل منهما حرة مستقلة فى الكومنولث البريطانى ، وبعد سنوات — حتى هذا الرباط — قطع ووقفت أندونيسيا حرة .

وفى ٢٧ من ديسمبر سلمت أندونيسيا السيادة على بتافيا فغير اسمها فى الحال وصارت تعرف باسم جاكرتا ، وهو نوع من التعديل فى الإسم القديم الذى كان يطلق على جاوة .

وكان الذى يمثل الجمهورية فى احتفال التسليم رجلا من أمتع الشخصيات بين الأندونيسيين فى هذا العصر هو سلطان جوجاكرتا ، واسمه الملكى هيمنجكوبونو التاسع ، وكانت خدماته العامة قد جعلت منه بطلا وطنيا بالرغم من عداء الجمهورية الملوك .

هذا السلطان من نسل سلسلة طويلة من الملوك الأندونيسيين ، ونشأ تحت تقاليد الحكم الاستبدادى (لايخضع إلا لموافقة الهولنديين وحدهم) ، ولكنه برهن على تشبثه بقواعد الديمقراطية . وبينما كان بعض الملوك الآخرين يدبرون مع الهولنديين للقضاء على الثورة ليستعيدوا عروشهم كان سلطان جوجاكرتا يضع فى شجاعة خطة مع الجمهورية ، ورفض أية مناقشة مع الهولنديين إلا فى جلائهم عن البلاد .

وفى أثناء الحملات العسكرية للهولنديين كان السلطان يعمل بصفة كولونيل فى الجيش الوطنى الأندونيسى ، ثم عمل فيما بعد وزيراً للدفاع ونائب رئيس وزراء فى وزارة أخرى ، وهو يهتم اهتماماً خاصاً بمشكلات الشباب ، ومن خدماته أنه زعيم لحركة الرواد .

وكان أهم أعمال الوطنيين تحت زعامة سوكارنو أنهم ألفوا بين جميع أنواع الأندونيسيين من أية جزيرة وفى أية طريق للحياة فصاروا وحدة متآلفة ، فالفلاح من منطقة نائية صار مواطنا للجمهورية مع السلطان .

ومن الاتجاهات الجديرة بالذكر دفع النساء إلى الاشتراك فى الحياة العامة ، فكان لهن دور هام فى حركة التحرير . وكثيراً ماتميزن بالشجاعة بل البطولة . وقد صار للنساء منذ الاستقلال دور يزداد أهمية على مر السنين فى حياة الجمهورية .

وقد شغلت سيدة قديرة هى السيدة ماريا الفة سانتوزو منصب وزيرة للشئون الاجتماعية فى إحدى الوزارات الأولى . ولعلها على الراجح أولى النســــاء اللائى شغلن منصبا وزاريا فى أية دولة إسلامية ، وعملت فيها كساعدة تنفيذية لرؤساء الوزارة الواحد بعد الآخر ولو أنهم كانوا من أحزاب مختلفة ، وكثيراً ما كانت بحق مفتاحاً حقيقيا لسير الأمور فى الحكومة الاندونيسية .

وقد صار عدد يستحق الذكر من النساء أعضاء فى المجلس الوطنى ، كما عمل بعضهن أعضاء فى وفود الأمم المتحدة وغيرها

من الأعمال ، وفى كل أقسام الحكومة نجد إدارات تديرها النساء على الأقل ، كما نجد فى الحكومة الأمريكية .

وبالرغم من نجاح الجمهورية فى كسب تأييد وولاء طبقات مختلفة من الناس لم يعملوا معاً على الإطلاق من قبل فإن عناصر من الناس لا يقومون بالولاء والنظام فى الحياة العامة .

وقد رأينا من قبل أن الدين الإسلامى قوه مساعدة على بقاء البلاد كوحدة ، ولكن فى الوقت ذاته نرى الآراء الإسلامية الحديثة تساعد حركة العدالة الاجتماعية ، ولكن كان هنالك ولا يزال جماعة إسلامية متطرفة — لاسيما الجماعة المعروفة باسم دار الإسلام — هـذه الجماعة تعتقد فى استعمال الشدة والعنف لمحاولة قلب الجمهورية إلى دولة دينية صرفة ، وهذه الجماعة قاومت السلطة المدنية وهى تتسلط فى الريف حيث تجد أنصاراً وقد استطاعت مقاومة الحكومة عدة سنوات لا سيما فى سومطرة الشمالية وبورنيو وسلبيس وجبال غرب جاوة .

وخفتت سطوة الشيوعيين بعض الوقت — لا سيما بعد اخفاقهم فى ثورة سنة ١٩٤٨ — ثم اضطراب الأنصار بسبب

التحولات البراقة التى أقدم عليها الزعماء فى خطوط « اتجاه الحزب » .على أنه فى السنوات الأخيرة — لا سيما بنمو عدم الرضا العام عن أخطاء الحكومة — زاد أنصار الحزب الشيوعى زيادة كبيرة ، وفضلا عن ذلك يظهر أن الرئيس سوكارنو يشجعهم باتخاذ « الحياد » وبجهوده فى السير على حبل سياسى وسط بين الأحزاب ، فهو كعدد من الزعماء الآسيويين يريد أن يبقى بمعزل عن الحرب الباردة بين الولايات المتحدة وروسيا السوفييتية ، وفى الوقت ذاته يحافظ على تأييد وصداقة القوتين الكبيرتين .

ومما لا ريب فيه أن أغلب الاندونيسيين يؤيدون سياسة الحياد فى الأمور الخارجية ، وبينهم كثيرون من الذين يكرهون الشيوعية ، فهم يريدون أن يكون ولاء اندونيسيا لنفسها لا لأية دولة أجنبية .

على أن بعض الاتجاهات السياسية للرئيس أثارت مناقشات كبيرة فى البلاد لا سيما فكرته عن الديمقراطية الموجهة . فليس لهذا النوع من النظام مثيل فى الغرب كما نعلم ، وفيه توضع قيود على الأحزاب وقيود على حرية الكلام وعلى الصحافة .

وقد أيد الشيوعيون هذه الفكرة . ويرى المدافعون عن فكرة الرئيس سوكارنو أنه بالرغم من ذلك فان سياسته هى الوحيدة التى تحول دون الشيوعيين وسيطرتهم على الحكومة .

واندونيسيا أيضا فى متاعب جدية من الوجهة المالية ، فقد اتبع الاحتلال سياسة « تجفيف الأرض » لاستعمالها فى قتال الهولنديين فى أجزاء من جاوة وسومطرة وكان حصار الهولنديين لأراضى الجمهورية كبير الضرر ، ومن الطبيعى أن ينقص انتاج الطعام وتقل كذلك موارد الدخل الأجنبى (مثـــل المطاط والبترول وغيرهما) .

ثم حلت الفترة الصعبة فى بدء الجمهورية الجديدة ، ثم تبعتها فترة محاولة الاندونيسيين الذين لم يتدربوا جيدا على أن يحلوا محل الاخصائيين الهولنديين الذين انسحبوا أو طردوا نتيجة النزاع والشقاق بين الدولتين . وكان كثيرون من الاندونيسيين يرون أنه ليس من الحكمة الاستيلاء على الأعمال الهولندية قبل أن يكون هنالك عدد كاف من الوطنيين المدربين على اداراتها .

وجاء فوق ذلك وقت رأى فيه الاندونيسيون أن الرشوة والاخلال بالأمانة (وكانوا يظنون أنهم يحررون أنفسهم منهما

حين استولوا على أمورهم) كانا لا يزالان منتشرين فى جهات كثيرة من حكومتهم الوطنية .

ولما كانت الحكومة المركزية فى جاوة وأنشط المرتشين والعاملين فى السوق السوداء ، يعملون فى العاصمة ، وهى جاكرتا ، أخذ الناس فى الجزر الخارجية الأخرى لا سيما فى سومطرة يعربون عن آراء ثورية على جاوة فى عنف يختلف شدة ولينا .

وأخيرا فى سنة ١٩٥٨ قامت ثورة سافرة فى سو مطرة يتزعمها رجال قاموا بخدمات هامة للجمهورية من قبل — مثل محافظ بنك اندونيسيا ومدير الجامعة وزعيم أحد الأحزاب السياسية الهامة ، وبدأ للعيان كأن جمهورية اندونيسيا توشك أن تتفكك .

ولكن كما حدث كثيرا فى الماضى كانت اندونيسيا تضمر مفاجآت للعالم فقد تحركت الحكومة ولا سيما الجيش فى سرعة ومهارة . وبالرغم من أن وحدات من الجيش انضمت للثوار الا أن الثورة أخمدت سريعا وفر الزعماء الى التلال أو إلى سنغافوره أو هونج كونج وسيطرت الحكومة مرة أخرى على البلاد .

ويجب أن ألاحظ فى عناية الدور الذى قام به الجيش فى هذا الحادث وفى الحوادث الأخرى منذ الاستقلال . فتحت القيادة النشيطة الرشيده للجنرال ناسوتيون القائد الأعلى ، وهو رجل مسلم تقى ، كان الجيش نوعا من عجلة الميزان فى الحياة السياسية الاندونيسية . ويعتقد الكثيرون أن نفوذ الجيش واتجاهه الدينى والديمقراطى هما اللذان حالا دون استيلاء الشيوعيين على الحكم فى الأزمات الكثيره الحديثة .

لقد استطاع الاندونيسيون العجيبون — بالرغم من جميع المتاعب من حرب وثورة واحتلال ومجاعة وفساد وتهديد التسلط الشيوعى — أن يصمدوا ، وأظهروا شجاعة ومقاومة وصبرا وأملا .

فهنالك مبدآن اندونيسيان قديمان جدا لا يزالان يقومان بدور فى حياة هذا الشعب : أحدهما فكرة « جوتنج روجنج » أو « تبادل التعاون » وهو مبدأ لا يزال حيا بينهم ، فبالرغم من النضال المستمر لكى يجد الشخص الطعام الذى يأكله فهو يقول: « قد تموت القرية جوعا ولكن لا يجب ألا يموت الفرد وحده » فهذا التعاون بين الناس يقضى بأن يتقاسم الناس ، سواء فى الخير أم فى الشر .

والقاعده الأساسية الأخرى هى « المشاوره » . وقد يكره الأوربى هذه الكلمة لأن معناها عنده ليست كمعناها عند الاندونيسى .

فالرجل غير الصبور يفهم المشاورة على أنها مجرد الكلام طول الوقت دون أن يعمل شيئا .

ويظن بعض الأجانب أن هذين المبدأين من نقائص الحياة الاندونيسية ، ولكن من المحتمل أن مبدأى جوتنج روجنج ومشاوره هما لب الديمقراطية فى اندونيسيا ، وقد يكونان مختلفين كل الاختلاف عن طرقنا ، ولكنهما قد يعبران تعبيرا أمينا عن آراء جيفرسون التى ساعد الرئيس سوكارنو على انتشارها بين الناس فى اندونيسيا .

الفصل التاسع

الشعب الإندونيسى

يعتبر الأندونيسيون من الناحية الجسمانية من أكثر الناس جاذبية فى العالم . ومن الطبيعى أن يكون بينهم أفراد غير ممشوقى القوام ، ولكن أغلبهم ذوو وجوه متناسبة وأعضاء مستوية وأجسام قوية متناسقة وأكثر الفتيات الأندونيسيات على جانب كبير من الجمال .

ويميل الأندونيسيون إلى قصر القامة ، وحين يظهرون فى الصور مع جماعات دولية كثيراً ما تكون رءوس الأندونيسيين فى مستوى أكتاف الأمريكيين ، على أن بعض الأندونيسيين أطول من المتوسط ، وهنالك نظرية تقول إن أبناء الملوك والنبلاء الجاويين كانوا على اتصال وثيق بالهند فى الأزمنة الهندوكية الجاوية ، ولذلك هم بالطبيعة أطول قامة ولهم مظهر الملوك ، ويعبرون عن ذلك بعبارة «راتون ستاتو Ratan Stature» أى

أنهم أليق بالقصور ، على أن فى عامة الناس ذوى القوام المألوف تناسباً حقيقياً حتى لا نجد سبباً فى أن ينشدوا الطول .

ولون الجلد عندهم أسمر مع اختلاف فى درجة السمرة من جهة إلى جهة ، ففى جاكرتا العاصمة نجد أناساً من جميع جهات البلاد ، ونجد جميع درجات اللون . والكثيرون من الأندونيسيين لهم وجوه يصفها الأمريكيون خطأ وفى غير عناية بأنها سحنة « صينية » . وفى أندونيسيا الكثيرون من الصينيين . غير أنهم عادة يميلون إلى البقاء بمعزل لا يختلطون إلا بأبناء جنسهم ، فالمظهر « الشرقى » للأندونيسيين الحقيقيين يعود فى الغالب إلى العناصر المنغولية من أهل الملايو الذين اجتاحوا كل الجنوب الشرقى من آسيا ، وبسبب هذه الوراثة الجنسية كثيراً ما يخطىء البعض فى ظنه أن شخصاً بالذات هو من أهل الملايو أو من أندونيسيا أو من الفلبين .

ومما يناسب أهل بلدة جديدة أن الناس يبدو عليهم الشباب ، والواقع أن الكثيرين من الزعماء هم فعلا من الشباب لأن ضعف التعليم أو عدم وجوده ، قلل من عدد المتعلمين بين رجال العصر القديم ، على أننا دائماً نجد مظهر الشباب والنشاط ، فالرئيس

سوكارنو لا يبدو فى سنه مطلقا (ويقال عادة أنه ولد سنة ١٩٠٢) وفى صور متعددة نرى الجنرال ناسوتيون أشبه بنسر من الرواد منه بالقائد الأكبر لجيش وطنى .

وليس الناس وسيمين فى مظهرهم فقط بل فيهم ظرف طبيعى نراه فى العمال وهم يؤدون عملا شاقا ، كما نراه فى الفتيات الرقيقات من الراقصات . ومن صفاتهم المجاملة والاتزان والصبر الذى لا يصدق .

ولقد ظل الأندونيسيون يسيرون فى أعمالهم اليومية دون الالتجاء إلى العنف فى أثناء حوادث وقعت فى السنوات الاثنتى عشرة الأخيرة . كان من المؤكد أن تحدث انفجارات فى كثير من البلاد الأخرى ؛ فالصبر والمشاورة — أى المناقشة فى الأمور — كثيراً ما يحلان فى أندونيسيا محل الهياج الذى كان ينتظر حدوثه فى بعض البلاد الأخرى .

ولعل مركز النساء الأندونيسيات له دخل فى هذا الأمر — أو لعله ظل له — فللنساء فى أندونيسيا مركز أعلى وأفيد وأهم منه فى أكثر بلاد آسيا . ومن المؤكد خير منه فى أية بلاد إسلامية.

ومن أوائل النساء اللاتى كان لهن الفضل فى الخروج إلى الحياة

أميرة صغيرة جاوية اسمها كارتيني توفيت سنة ١٩٠٤ ولها من العمر خمس وعشرون سنة ، وبدأت حتى فى هذه الحياة القصيرة ثورة حقيقية وكانت من أظرف وأتقى البطلات المثقفات وقد أرادت لنفسها وغيرها من نساء أندونيسيا الحق فى أن يقمن بدور نشيط فى الأعمال العالمية . وتحررت من قيود التقاليد والعادات الإسلامية ، وكانت سيدة عملية فيما تعمله . ومن العبارات التى تمثل كارتيني حق التمثيل قولها : « أريد أن أكون جديرة بأعلى لقب لى وهو أن أكون حقيقة ابنة الله » .

وقد تمكنت بمعونة أصدقاء هولنديين مخلصين أن تحصل على تعليم واف ، ثم بدأت افتتاح مدرسة للبنات ، ثم تلتها فيما بعد بافتتاح مدرسة أخرى فى بيتها الجديد عندما تزوجت أميرا فى رمبانج .

ونشرت رسائل كارتيني باللغة الهولندية سنة ١٩١١ ، وصار الكتاب أساس الحركة النسائية فى أندونيسيا ، وصدر الكتاب فى طبعة أمريكية سنة ١٩٢٠ تحت عنوان « رسائل أميرة من جاوه » ، وافتتحت مدرسة للبنات سنة ١٩١٢ إحياء لذكرى كارتيني ، ويحتفل فى ٢١ من أبريل من كل سنة بيوم كارتيني وهو

ذكرى مولدها فى جميع أنحاء البلاد ولقد صدقت صحيفة أندونيسية حين كتبت عنها سنة ١٩٦٠ تقول « بفضلها رأى نساء أندونيسيا النور » .

وأول بناء أقيم لمدرسة بنات كان بناء على اقتراح أميرة أخرى هى الأميرة ديوى سارتيكا وهى من أوائل المنادين فى جاوه الغربية بتحرير النساء وتعليمهن ، وانتشرت هذه المدارس وتأثر الكثيرون بالمثل الذى ضربته سارتيكا .

تكلمنا فى الفصل السابق عن نساء شغلن أعمالا حكومية هامة ولكن العمل النافع لا يقتصر على الأعمال الحكومية ، فلقد برهنت النساء فى أندونيسيا فى الصحافة والتربية وأعمال المكتبات والطب والشئون الاجتماعية والقانون والمحاسبة وفى ميادين أخرى كثيرة أنهن « المورد » الوطنى السرى . ونجد مثلا لذلك حتى فى الأعمال الحرة . وقد أظهرت دراسة صناعة « الباتيك » بمدينة جوجاكرتا سنة ١٩٥٧ بأن نصف المصانع التى تقوم بهذه الصناعة يديرها الأزواج والزوجات معا ، وأن ربع المصانع فى هذه الصناعة تديرها النساء وحدهن ، فأندونيسيا إذن تحسن الانتفاع بمجهودات نسائها .

وتعكس الحالة فى الدين ومركز النساء فى البلاد روح السماحة التى تسود أهل أندونيسيا ، فإن أكثر من تسعة أعشار الناس مسلمون ، ومع ذلك تعامل الأقليات الهندوكية والمسيحية معاملة حسنة بوجه عام . والواقع أن القبائل المسيحية تلقت تعليما أوفى بسبب المبشرين عما كانت تقوم به الدولة المستعمرة نحو الأهالى عامة ، ولذلك نجد النسبة عالية بين المسيحيين المتعلمين فى الأهالى المتقدمين فى السن ، وقد قام هؤلاء — لا سيما أهل البتاق فى سومطرة — بعمل نافع فى خدمة حكومة الجمهورية ، ويشغل المسيحيون نسبة عالية فى الأعمال الحكومية الهامة أكثر مما ننتظره من نسبتهم الصغيرة فى مجموع أهل البلاد .

والمسلمون الأندونيسيون يختلفون عن غيرهم من المسلمين فى عدة مواضع : فيظن بعض الأجانب خطأ — ومن بينهم بعض المسلمين من بلاد أخرى الذين يزورون البلاد — أن الأندونيسيين لا يتمسكون بالدين تمسكا متينا ، وهى فكرة خاطئة بنيت على علامات سطحية ، منها أن النساء الأندونيسيات لم يلبسن الحجاب ، وأن المساجد وهى أماكن العبادة ليست فى مثل الفخامة التى نجدها فى البلاد الإسلامية الأخرى ، وأن أهل منتجكابا ولا تزال أسرهم « أمهاتية » ، أى ينتسب

الأولاد إلى الأمهات بدلا من الاباء ، وأنه فى كل مكان نجد القانون الاسلامى مختلطا بقانون العادات الجارية المحلى ، وليس بين الاندونيسيين إلا قلة لهم أكثر من زوجة واحدة . ولو أن القانون الاسلامى يسمح نظريا بالزواج من أربع . على أن الاندونيسيين بصفة عامة من أخلص المسلمين لدينهم ومن أتقاهم ، ويقوم الآلاف منهم فى كل سنة بفريضة الحج الى مكة المكرمة ، والاسلام عنصر هام ، لا فى الحياة الخاصة للاندونيسيين فقط — كعلاقاتهم مع الله جل وعلا ، بل فى معاملاتهم العامة أيضا .

فالاسلام مثل المسيحية واليهودية هى أديان الوحدانية ، أى الاعتقاد باله واحد ، وهى مشتركة فى كثير من الأمور ، حتى أن الأمريكى يجد من السهل عليه فهم الآراء الأساسية فى الاسلام ، وكلمة « الاسلام » معناها الخضوع (لارادةالله تعالى) « والمسلم » من اعترف بوحدانية الله ونبوة محمد واتبع تعاليم الإسلام فى الصلاة والزكاة وحج البيت الحرام ، والمسلمون يحترمون المسيح احتراما كبيرا ، وكل ما نعده نحن المسيحيين من الفضائل المسيحية قد يعتبر كذلك فضائل اسلامية .

وكما كانت تعاليم المسيح فى أوقات مختلفة من تاريخنا

عاملا على الإصلاح الاجتماعى كذلك ساعدت التعاليم الإسلامية على إفساح الطريق للتغـــيرات فى أندونيسيا ، فالجمعيات الإسلامية اشتركت كثيراً فى الحياة السياسية للجمهورية وفى القتال من أحق الحرية وفى حركة العدالة الإجتماعية وفى الهجوم على الإبتعاد عن الروح الدينية سواء فى الشيوعية أم فى المـادية الغربيـة .

وكان من أعظم مراقى النجاح لسوكارنو والزعماء الآخرين أنهم ألفوا بين الجماعات الدينية والجماعات غير الدينية فى حركة وطنية واحدة لها القوة التى استطاعت بها هزيمة الهولنديين ومنع الشيوعيين من تولى السلطة ، ولـكن بعد كسب الاستقلال ورحيل الجيوش الهولندية صار من الصعب بقاء هذه الجمعيات متآلفة . فكما حاول الشيوعيون أن « يهربوا بالثورة » خدمة لأغراضهم ، كذلك حاولت بعض الجمعيات الدينية الاستيلاء على السلطة خدمة لأغراضها ،

وكما قلنا من قبل أن جمعية دار الإسلام المتعصبة ، فى ثورة فعليـة على الحـكومة وتستعمل الإرهاب للتغلب على الجهات التى تقع تحت سيطرتها ، وهى عنيفة فى محاولتها فرض دولة

إسلامية . كالشيوعيين فى محاولتهم فرض نوع الحكم الذى يريدونه .

ولكن يجب أن يكون مفهوما أن الأغراض التى تعلنها الجماعتان — وهى أغراض تختلف كل الإختلاف فى الجماعتين وإن كانتا أحياناً متشابهتين فى الطريقة — تجد تأييداً واسعاً من الأندونيسيين بوجه عام ، فالدولة المثلى التى تستكشف من تعاليم النبى محمد فى القرن السابع فى بلاد العرب تجد تأييداً كبيراً لدى كثيرين من مسلمى القرن العشرين فى أندونيسيا ، ومثل العدالة الاقتصادية والاجتماعية التى يقول الشيوعيون أنهم يتبعونها هى بطبيعة الحال جذابة لشعب ظل قروناً طويلة يستغل من أمرائه ومن الأجانب المستعمرين .

إن الفلاح الأندونيسى البسيط ، والعامل فى المدن ، وهما بغير تعليم واسع ، وعلى غير معرفة بما حدث فى ظل الشيوعية فى البلاد الأخرى ، وهما كذلك من غير أملاك ، يصعب عليهما أن يفهما التحذيرات التى يقدمها لهما غير الشيوعيين .

والمواطن العادى لا يمكنه الحكم على الفرق بين الادعاءات

والنتائج الفعلية إلا بعد أن يصل الشيوعيون إلى شيء من السيطرة ثم يفشلوا فى أى تحسين لحياته .

كانت الجماعات الإسلامية هى أكبر المعارضين للشيوعيين ، وفى الماضى القريب كانت الجمعية السياسية المسماة سجومى هى أكبر الجماعات إلى أن صدر الأمر بحلها سنة ١٩٦٠ ، وكانت تعتبر أقوى جماعة معارضة للشيوعية . وهنالك جماعة اسمها ن . ى أقرب منها إلى الشعب انضمت إلى الشيوعيين فى تأييد بعض سياسات الحكومة ولكن من المعتقد أنها قوية جداً فى عدائها للشيوعية ، كما أن من المعتقد أن الروح الإسلامية فى الجيش هى السبب فى موقف كراهية الشيوعية بوجه عام فى السنوات الأخيرة . إن الإسلام عامل هام فى كل خطوة من حياة الأندونيسى ، وليس فى يوم الجمعة فقط (وهو اليوم المقدس عندهم) بل فى كل دقيقة من كل يوم .

لقد علمنا مما سبق إلى الآن أن ليس فى أندونيسيا ما يحدث تماما كما كان منتظراً ، فالبلاد لها مقدرة عجيبة على تسرب وقبول وتعديل كل شيء يجيئها من الخارج ، وينطبق هذا القول فى ميدان الدين كما ينطبق على أى شيء آخر ، ففيما تحت الإسلام نجد

طبقات من الهندوكية والبوذية وعبادة الأجداد من عصور سابقة ، ولقد مرت قرون كثيرة منذ جاء القرآن الكريم إلى جزر الهند الشرقية ولكنا لا نزال نرى معتقدات قديمة باقية وعادات قديمة شعبية مختلطة بالشعائر الإسلامية .

وعلى سبيل المثال نحن نعلم أن قواعد الإسلام تحرم الأصنام ، حتى أن صورة الإنسان فى بعض البلاد الإسلامية تعتبر محرمة ، وهنالك أحوال منع فيها وضع اللوحات المصورة لتحذير العمال فى المعامل ، وهذا مثل متطرف . على أنه حتى فى البلاد الإسلامية القديمة فى الحضارة يكره الناس صورة شخصية دينية ، حتى أنهم أقدموا على تمزيق هذه الصور من كتب غربية فى المكتبات لمنع هذا العمل السيء . ولكن فى أندونيسيا نجد بعض المسلمين بين العامة دون أن يشعروا بأنهم يرتكبون خطيئة ويقدمون القرابين للتمثال الكبير للالهة الهندية « لاراجوبجزانج» (الفتاة النحيلة) فى منتصف جزيرة جاوه . ونفس هذا الأمر يحدث فى أقسام أخرى من البلاد ، إذ تقدم القرابين للتماثيل أو الأحجار أو القبور أو الأشجار .

فالأساطير التى يرويها الفلاحون ، والقصص التى لها علاقة

بالأعياد الكثيرة والاحتفالات ، مليئة بالنوع المحلى الهندوكى حتى فى الأقسام من الجزر التى صارت إسلامية كليـــة منذ قرون .

وهنالك حتى أساطير هنــدوكية اتخذت لإظهار بعض الفضائل الإسلامية أو لتكون إطاراً لقصص إسلامية صرفة ، وفى التمثيليات — ولا سيما فى مسرح العرائس الذى نتكلم عنه فى فصل قادم — نرى القصص من أصل هندوكى مع شىء من التعديل لتتفق مع التاريخ والأساطير الأندونيسية فى مجتمع إسلامى .

على أنه لما كانت الثقافة الأندونيسية كثيرة التعقيد فإن الهنــدوكية نفسها لا تعبر عن كل القصة ، فإننا نجد تحت كل شىء عقيدة عبادة الأجداد القديمة وما فيهـا من اعتقاد فى الأرواح ، وعبادة الأجداد ترجع إلى أزمان سابقة على قدوم الهندوكية .

فالعادات الشعبية التى ضاع أصـــلها فى سحائب القرون لا تزال قوى ناشطة فى حياة الأندونيسيين ، والـكلمة التى يستعملها الباحثون لتـكوين الآراء من جوانب مختلفة هى كلمـة

المواسطة» أى التجميع » . ونقول فى هذا المجال أن الأندونيسيين هم أساتذة بلا مراء فى اتخاذ شيء من هذه الناحية وشيء من تلك الناحية وتكوينهما معاً مع إضافة لمسة من شيء بقى من عصور قليلة سابقة لكى يكون شيئاً لم ير له شبيه من قبل .

يبدو هذا التجميع من عناصر مختلفة فى كل ميدان فضلا عن الدين ، فالكثير من الآراء الاقتصادية جاء من الحياة القديمة فى الريف ، ولكن قطعاً منها جاءت من نظام الإصلاح الزراعى الهولندى ومن رأسمالية العالم الغربى ، فالآراء عن الإصلاح الإجتماعى إنما جاءت من الاشتراكية الديمقراطية للقرن التاسع عشر ، والآراء عن الدولة التى تعمل للتفع العام فى فى القرن العشربن ، وتقوم إدارة الأعمال طرق مستمدة من أوربا وأمريكا والهند والصين واقتبست الآراء السياسية من چيفرسون وماركس وروزفلت وغاندى وسن — يات — سن وكمال أتاتورك وماوتسى تونج . أما العادات والسلوك الاجتماعى فهى قائمة على تعليمات من مصادر كثيرة متنوعة من أساطير عن الملك ايرلنجا إلى السلوك الذى نتعلمه اليوم من مارلين مونرو وبات بون .

ولما كانت الحياة الإجتماعية وآراء الناس فى أندونيسيا مؤلفة بهـــذه الطريقة غير المعتاده فيجب أن ننتظر أن حل مشكلات البلاد قد يكون عملا فريداً فى بابه . فطريقتهم تختلف كل الاختلاف عن الطريقة الغربية ولكنها أمثل الطارق لهم .

الفصل العاشر

كيف يعيشون

كنا نتحدث فى نهاية الفصل الأخير عن أهم الأمور فى أية بلدة وهم شعبها وما يدور فى أذهانهم وفى قلوبهم ، وقد يصعب وصف ذلك مباشرة ، ولكننا أحيانا نستخلص آراء نافعة من العلامات الخارجية . فلننظر إذن إلى البيوت والثياب والطعام والعادات الخاصة بأندونيسيا .

هنالك مظهر واحد متشابه فى جميع البيوت تقريبا — سواء أكان رسمها حديثا أم قديما، وسواء أكان سكانها بدائيين فى معيشتهم أم من الحديثين جدا — نرى الحوائط الجنبية فى هذه الدور غير هامة ، وإنما ينصب اهتمامهم على أسقف البيت ، وذلك طبيعى فى بلاد جوها حار دائما ولكن ينتظر فيها دائما سقوط أمطار غزيرة .

الواقع أن بعض الدور — ومنها الكثير من مبانى الحكومة — ليس لها حوائط جانبية على الاطلاق ، بل توضع ستائر من الخيرزان أو الحصير بدلا منها للظل أو الوقاية من

مطر مندفع . وهناك بعض الدور لها حوائط ثقيلة قد تكون أخشابا فى بعض المساحات الريفية أو بناء على الطراز الهولندى فى بعض دور المدينة ، ومع ذلك نرى فيها عادة أبوابا ونوافذ كبيرة فوق العادة ، فيخيل إلينا أنها مفتوحة ، ونرى مداخل مزدانة يستعملها السكان المعيشة فيها ، وهى من الصفات الهامة فى الكثيرة من الأبنية .

ونرى غرف الطعام الأساسية فى الفنادق الكبرى مفتوحة للهواء الخارجى من جانبين أو ثلاثة جوانب ، ونجد هذا الأمر فى أغلب المطاعم العامة إلا فى الأماكن النادرة التى يكون فيها تكييف للهواء .

والأسقف فى أندونيسيا — وهى أهم أقسام الدور — تكون من كل أنواع المواد التى يمكن أن تفكر فيها ، فتكون قطعا من الخشب عملت ألواحا ، أو من ليف النخيل المملط ، أو من قطع الطوب ، وعاده باللون الأحمر ، أو الأحمر الفاتح ، وفى المدن التى اتخذت طابعا حديثا نرى الأسقف جميعا بالطوب الأحمر . على أننا نرى هذا اللون أيضا فى الريف وإن كان كل شىء آخر حال لونه .

ونجد شخصية المنازل وطبيعتها الخاصة متجليتين حقا فى

السوق العجيبة وأجملها الأسقف من ليف النخيل المملط فى منتجكباو بسومطرة ، فالبيوت هنالك بجوانبها المزخرفة أجمل زخرفة إن هى إلا متاحف فعلا ، لا سيما حين نراها من خلف جماعات من أهل البلاد فى ثيابهم الوطنية . ولكن عظمة هذه الدور الجذابة تتجمع فى سلسلة تشرح النفس من أطراف السقوف ترتفع إلى أعلى ، ونجد مخازن الرز الصغيرة ، وهى دائما إلى جانب الدور ، وكأنها صور جميلة متناسبة مع الأسلوب الطريف ، وقلما نجد فى العالم أبنية للدور أجمل أمام العين من أبنية بيوت منتجكباو .

وفى مدورا نجد « قرون ثيران » نخمة بارزة فوق الرافدة ، ولأهل بتاك ودياك نوع خاص بهم من الأسقف ، وفى جاكرتا نرى الطوب الأحمر فوق الحوائط البيضاء تحوطها الحدائق الخضراء فيذكر الأمريكى بلاده فى فلوريدا أو كاليفورنيا الجنوبية .

ونحتت الأخشاب مع تلوينها باللون البهيج كانا منذ قرون من الفنون التقليدية فى أندونيسيا . ونجد عادة فى أغلب البيوت نوعا من هذا النحت فنراه على الأعمدة وأعلى الأسقف والحوائط الجانبية أو على المداخل وفى بعض الجماعات لا سيما فى بورنيو نجد صور أشخاص من الخشب عند مدخل باب

السكن لكى تبعد غائلة الشياطين . وتحت صور الأشخاص الهندوكية والرموز أمر هام فى جميع قرى بالى .

وفى كثير من الساحات نجد أغلب البيوت مرتفعة على ركزة فوق الأرض لبضع أقدام والدخول إليها بسلم صغير أو بمر خشبي كممر العصابات وهذا الارتفاع يحول دون دخول الثعابين وغيرها من الحيوانات المتوحشة إلى الدور والخروج منها ، ثم أنه يرتفع البناء عن الطين ويسمح بدورة الهـــواء .

ومن عجائب البيوت الأندونيسية من وجهة نظرنا وجود بيوت لسكنى العائلات فى الريف ، وقلما نجد مثلها فى المدن ، فنى الأحياء الفقيرة فى المدن يعيش الناس محصورين فى عشش .

أما المساكن فهى عادة لأسر منفردة وأكثرها ذات طابق واحد وذات منظر جميل ، وفى العهد القريب أقيمت بعض بيوت قليلة لسكنى العائلات فى جاكرتا ، ولكن بوجه عام نرى مساحات السكن حتى فى أكبر المدن إنما أعدت لسكن هادىء أشبه ما يكون بالسكن فى المدن الصغيرة .

ومما يناقض ذلك أن الريف هو المكان الذى نجد فيه الدور التى تسكن الواحدة منها أسر كثيرة ، وفى بعض المساحات تلك هى الطريقة الطبيعية للسكن ، وقد تكون مبان مختلفة جمعت فيما يشبه المجمع للأسر المتصلة بالقرابة كما يشاهد فى جزيرة بالى . والمنازل فى مننجكباو التى تحدثنا عنها يبنى فيها جناح جديد كلما تزوجت ابنة من بنات الأسرة أو أكثر ، وقد وضعت على أنها أشبه بالبيوت الطويلة السابقة التى كان يعيش فيها الهنود الحمر من قبيلة الأريكوا فى ولاية نيويورك أو قرى البويبلو لقبائل الرونى فى الجنوب الغربى الأمريكى . وعلى كل حال نرى توثيق القرابة العائلية فى تقاليد السكن فى جميع المساكن تقريبا خارج نطاق المدن .

وكما يفعل البويبلو من الهنود الحمر إذ يقيمون « كيفا » لاحتفالاتهم الخاصة بكل جماعة تسكن معا كذلك أهل بالى الهندوكيون لهم معبد صغير داخل كل مسكن جماعى ولو أنه توجد معابد قروية فضلا عن المعابد الكبيرة الشهيرة ، وفى الجماعات الإسلامية على الجزر الأخرى هنالك المساجد الكبرى ولكن فى كل دار كبيرة نرى عادة غرفة الاجتماعات للحفلات

والأعياد فى أوقات معينة من السنة وللاحتفال بمرحلة البلوغ عند الأبناء بل وفى حفلات العرائس التى نتكلم عنها فى الفصل القادم .

ومن الطبيعى أن الجو الحار يؤثر فى الثياب كما يؤثر فى المسكن . والثياب فى اندونيسيا مناسبة للجو . والرجال هنالك شأنهم شأن الرجال في كل مكان يتركون المظهر فى الثياب للسيدات إلا فى الاحتفالات الخاصة مثل الاحتفالات الهامة فى « الكراتون » (أى القصور) وحينئذ يتجمل كل إنسان بأفخر الثياب وينقلب المنظر إلى مشهد متنوع الألوان . أما فى الأيام العادية فإن الرجال الذين يكونون موظفين حكوميين أو رجال أعمال أو عمالا فى مكتب أو ما شابه ذلك فإنهم يلبسون ما يلبسه الرجل فى جو حار .

وفى أعمال أقل رسمية من هذا حيث يلبس الأمريكى البنطلون الصيفى وقمصان « ألوها » فى الصيف يرتدى الأندونيسى قميصا جميلا من الباتيك فى الصيف وهو القماش الذى نتحدث عنه فيما بعد وهو ما يكون له نفس التأثير . وقد تأثر الاندونسيون العاملون فى المكاتب بمظهر الغربيين حتى أن بعض الذين يتمتعون بنظر سليم يضعون نظارات ذات حافات سميكة وزجاجها عادى

لمجرد المظهر فقط، ويحملون حقائب المذكرات ولا شيء فيها غير غذاء الظهيرة .

أما العاملون فى المدن فى مراكز صغيرة فقد يكونون عارين عن الثياب فيما فوق الوسط ، أو يرتدون قمصانا بيضاء أو ملونة، أو بلون الكاكى على طراز الغرب وبرقبة مفتوحة وأكمام قصيرة، وهذه القمصان تكون دائما نظيفة للناظر حتى ولو لبسها عمال الأعمال اليدوية، بالرغم من أنه قد لا يكون هنالك تسهيلات للغسل عدا قناة قذرة . وفيما تحت الوسط يرتدون بنظلونا قصيرا أبيض أو « كاكى » أو يضعون مئزرهم الشهير المعروف باسم « سارونج » وهذا « الساورنج » يوجد فى جميع جهات البلاد تقريبا كرداء يلبسه الرجال والنساء .

ويحتذى جميع لابسى الياقة البيضاء فى المدن الحذاء، ولكن العمال وخدم المطاعم وخدم البيوت لا يحتذون ، وفى خارج المدن نجد غالبية الملايين من الناس لم يضعوا حذاء فى أقدامهم قط، وتجد حتى العائشين فى رخاء يفضلون التمتع بالأقدام العارية فى بيوتهم الجميلة بالمدينة أو دورهم الصغيرة فوق الجبال . وكثيرا ما يرتدون السارونج فى الدار كما يفعل الأمريكان حين يرتدون

« بنطلونات » الصيف فى عطلات الأسبوع ، ولو أنهم يرتدونه الثياب الرسمية فى أسبوع العمل .

ومن أغطية الرأس التى ترى فى كل مكان الطاقية من القطيفة السوداء المسماة « بيتجى » والتى كادت تصير مظهر الاتحاد الوطنى. ويضعها كل إنسان على رأسه من رئيس الجمهورية إلى أفقر فلاح.

وفيما عدا السارونج والقميص من الباتيك أحيانا لا نجد تنوعا كبيرا فى ثياب الرجل ولكن النساء يعوضن هذا النقص .

فالسارونج أو قماش يدعى « كين » هو أساسى فى ملابس السيدات ، غير أن الزخارف والإضافات التى تستدعى إليه تجعله يسترعى النظر ، ويرتدى النساء قماشا من لون آخر يلقى فوق الأكتاف ، وهو جذاب فى منظره ولكنه يستعمل أحيانا كالشال فوق الرأس لحمل المشتريات أو الأطفال أو غير ذلك من أغراض أخرى . وبعض النساء اللاتى يشغلن عملا مهنيا فى المدن يرتدون الآن الثياب على الطريقة الغربية فى أثناء العمل ولكن

بدون أكمام، وحتى هؤلاء يلبسن دائماً الثياب الوطنية فى الحفلات والدعوات .

ويضم النساء شعرهن ويعقدنه كعكة متينة ويزينه بالدبابيس والتيجان والأمشاط وما ماثل ذلك . وهى مصنوعة من الصدف والفضة والذهب والخشب الملون وغيرها من المواد المفرحة . والأزهار فى الشعر كثيراً ما تضيف إلى سحر زينة الرأس . والواقع أن الأندونيسيين يحبون استعمال الأزهار مفردة أو على شكل أكليل فى كل من الأحوال . وفى سباق الثيران الشهير ، الذى يجرى فى مدورا ، تحلى الحيوانات بأكاليل الأزهار .

ويلبس النساء فى احتفالات المناسبات سترات أنيقة جداً من الحرير المزخرف وفى أقدامهن صنادل من الخشب مطلية بالذهب ويضعون الحلى الجميلة .

والقطن هو القماش المستعمل عادة وقد يكون من النوع الرخيص المصنوع للعامة ، أو قد يكون من الباتيك الفاخر المصنوع باليد . وهناك أقسام من البلاد لا صلة لها بالمدن يكون القماش فيها من « التابا » وهو مادة ليفية تعمل بنقع أخشاب أشجار خاصة وضربها ، وهنالك بعض المساحات بدائية لا تزال قائمة فيها

فكرة الرجل أو المرأة الأنيقة الثياب ترجع إلى قرون بعيدة ، حتى أن الثياب تقتصر على مجرد تغطية الخضر بغطاء من أوراق الشجر ، وهذه كل الثياب الأساسية .

وتستعمل الشمسية للوقاية من الشمس أكثر من المطر . ونوع من هذه الوقاية التى تعمل للساعة وكثيراً ما نراها فى عرض الطريق ورقة موز تقطع للحال وتمسك فوق الرأس . وكما يحدث فى الكثير من بلاد آسيا نجد عامة الناس القليلين الذين يمتلكون أحذية يخلعونها ويحملونها فى أيديهم عند ما يكون الطريق موحلا ، فقليل من الوحل لا يضر بالقدم العارية ولكنه قد يتلف زوجاً من الأحذية كلف ثمنه دخل شهر كامل .

والنقل مشكلة خاصـــة فى تلك البلاد المليئة بالجزر والجبال والغابات والمستنقعات ، ولا يوجد بها الكثير من طرق السكك الحديدية خارج جاوة ، والقوارب بين الجزر أهم منها بكثير ، على أن نظام الطرق فوق الأرض وإن لم يكن كاملا فإنه يوصل بين المراكز الأساسية . وبالرغم من التحسن فى الطرق الكبيرة وزيادة عدد الناقلات فإن الجسم الإنسانى هو أهم وسائل النقل .

ويحمل الرجال – ولاسيما النساء – أحمالا ثقيلة على رءوسهن ويقال إن ذلك هو السبب فى القوام المشدود ، وكذلك عادة عدم تحريك الرأس وتحريك العينين فقط عند النظر إلى فوق أو إلى تحت أو إلى جانب من الجانبين .

ومن المناظر المألوفة فى طرق أندونيسيا منظر الحمال وهو يحمل أحمالا ثقيلة (فاكهة أو رزاً أو جوز الهند أو ماشابه ذلك) على أطراف عصا توازن طويلة على كتفيه العاريتين ، ولكى يمنع الحمال تحرك الحمل فى كل خطوة فإنه يتخذ مشية محدودية ليقلل حركة الصعود والهبوط للعصا مع كل حركة ، وهى أقرب شبها بالخطوة الغربية المسماة الرسح والأصابع «فى سباق المشى بالألعاب الأولمبية» .

وليس فى المدن غير القليل من سيارات الأجرة ، ويشغل مكانها نوع من الدراجات تحمل ركاباً تسمى البتجاك ، ويقال إن عددها فى جاكرتا وحدها بلغ ثمانين ألفاً . ومن أظرف ما فى البتجاك صوت حلقة من المطاط تمتد عادة حتى مقعد الراكب ، على حين أن السائق يحرك الدراجة من الخلف فيخرج من حلقة المطاط صوت أزيز فى الهواء وعجلات البتجاك تدور فى الخلف .

ويختلف الصوت فى ارتفاعه مع سرعة الدراجة فيشعر السائق والراكب بسرعة التقدم ، ثم أنها تحذر المشاة على الأقدام من الخطر فى أن يداسوا ، وفى بعض المدن تكون سيارات الأجرة على شكل عربة يجرها جواد ويسميها البريطانيون « عربة الكلب » ولذلك سماها الأندونيسيون « دوكار » ويجرها عادة قريب قوى من أقرباء الخيل الصغيرة المتوحشة من آسيا الوسطى .

وأكثر الحيوانات الأليفة عدداً فضلا عن الجياد هى ثيران الماء والماشية والدجاج والماعز والخنازير والخراف والقطط والكلاب وثيران الماء الضخمة المسماة كارابا ، وهى من نسل الثور المتوحش ، ولها قرون يبلغ طولها أحياناً على مقاس الجبهتين ست أقدام ، أما الدجاج التى تسمى بنتام جاءت فى الأصل من بنتام بغرب جاوة .

ولما كان المسلمون المحافظون على دينهم لا يأكلون الخنزير فلا نجده إلا فى المساحات الهندوكية والمسيحية .

وتستعمل القبائل البدائية التى تعيش على الصيد حراباً ورمحاً ونشاباً وبنادق ذات قذائف مسمومة وأنواعاً مختلفة

من المصايد ، وهم يشيدون الغزلان وطيورا أشبه بالديكة وقردة وخنازير برية . وقد روى سائح بين قوم الكوبو فى سومطرة منذ بضع سنوات « أنهم يأكاون كل شيء تقريبا من الفيلة النافقة إلى الحشرات والديدان » .

ولكن فيما عدا القبائل التى تعيش على الصيد لا يقبل الاندونيسيون على أكل اللحم كثيرا ، فالرز هو ينبوع الحياة فى أكثر أقسام البلاد . ونجد الخطوط المنظمة الجميلة على جوانب التلال وأحواض الرز فى السهول ، وهى من المناظر المألوفة فى جاوة وبالى وجنوب سومطرة وجنوب سلبيس ، وهذه «الزراعة المبللة » فى أغنى مناطق البلاد تنتج انتاجا عجيبا ويكون محصولها مرتين أو ثلاث مرات فى السنة ، وحيث تكون الأرض أقل جودة ، أو المياه غير متوافرة ، أو على أية حال حيث لم يتدخل الانسان فى مساعدة الطبيعة كما يفعل فى غيرها ، تستعمل طريقة انتاج « الرز الجاف » .

ومن غير الرى يكون المحصول أقل كثيرا . وتعرف الطريقة الجافة أيضا باسم « احرق وازرع » ، وهو وصف صحيح لها : فانك تنظف مساحة من الغابة وتحرق أخشابها ثم يزرع المحصول المرة

بعد المرة حتى تهلك الأرض بعد اثنتى عشرة سنة أو ما يقرب منها فتنتقل الزراعة إلى قطعة أرض جديدة .

أما نظام الرز المبلل فله فوائد عديدة ، فضلا عن مسألة الطعام — وهى المسألة الأساسية — فمن جهة أن نظام الرز المبلل هو الذى أنتج الرخاء فى بعض المساحات فانتشرت فيها الثقافة وألف أهلها فنون الرقى مثل الرقص والموسيقى ، كما أنها ساعدت على تقدم المهارة الهندسية والتفكير العلمى فى نظام الرى كانشاء الخزانات والمساقى وحواجز الماء من الخيزران ورافعات المياه التى تحركها المياه الجارية نفسها .

ولكن أكبر أثر لطريقة رى الرز فى نموه أنه يعلم العدالة والحلم والتعاون ، فهو نوع من المدرسة الابتدائية فى الديمقراطية . فالفلاح بمفرده لا يستطيع أن يقيم نظام رى لقطعة صغيرة من الأرض وحدها ، ولكن العمل مع الجيران متساندين يستطيعون به أن يقوموا بذلك ، فاذا أتموا هذا العمل لم يتمالكوا الا أن يعلموا الكثير عن الاشتراك فى إدارة مشروعهم ، فروح العمل « لنعش ويعش غيرنا » يوجد حيثما وجدت الشركة فى الماء من أجل حقول الرز .

وقد تأكل الطيور السارقة محصول الرز بأكمله لو ترك لها ، ولابد من مجهود كبير لطرد هذه الطيور فتوضع طواحين صغيرة تزن فى دورانها بين الأحواض أو يكلف واحد بالجلوس والتصفيق بيديه ، ولكن مما يسترعى النظر أكثر من ذلك نظام تعاون يعلم مثل الزراعة لمساعدة الزراع بعضهم بعضا .

وتقام منصة عليها قوائم وسط عدد كبير من أحواض الرز ويتصل به خيوط من قمته من جميع الحقول ، وبعضها يبعد مئات الأقدام ، ويمكن لحارس المحصول أن يراقب المساحة بأكملها ويشد الخيط الموصل للحقل الذى أخذت الطيور تغير عليه وتسبب اضطرابا فيه . ويتفق ملاك الحقول المختلفة على أن يقدم كل منهم صبيا بالدور للقيام بهذا العمل .

وفى الجزر الشرقية وأقسام من بورنيو وفى غيرها يأخذ الساجو محل الرز كطعام أساسى ، ونخيل الساجو له مركز اسفنجى ملىء بالنشا فتقطع الشجرة وتطهى هذه القطعة المركزية ، ونرى من هذا أن أهالى مساحات الساجو يعيشون على تلك الشجرة .

وحتى فى مناطق الرز نجد طعاما اضافيا ذا قيمة كبيرة فى الكاسافا وهى مصدر التابيوكا ، وقد أشرنا من قبل فى الفصل

السادس إلى أنها جاءت من جنوب أمريكا وفى جذرها من النشا ما يزيد على البطاطس ، وهى تطهى بطرق مخلية كثيرة ويصنع البعض منه ما تشبه العجينة الشهيرة باسم « بوى » التى يعملها أهل جزر هواى التابعة لأمريكا من جذر « التارو » والمساحة التى تزرع بالكاسافا هى الثالثة بعد الرز والقمح ، ومن مزايا الكاسافا أنه ينمو ويجود فى أرض أضعف من أن تزرع رزا .

ومن محصولات الطعام الهامة اليام ، وفول الصويا ، والباذنجان ، والفول السودانى . ويدخل الفول السودانى فى طعام الحافلات بطريقة جديده علينا ، فقطع اللحم تشوى على أسياخ ، كالشيش كباب ، ولكن فى قطع صغيرة وتكسى بطبقة من الفول السودانى المخرط ، فاندونيسيا أحد الأماكن القليلة التى قد تتذوق فيها طعم اللحم مع طعم زبده الفول فى لقمة واحده .

ويكون العمل لانتاج هذه الحاصلات كلها بمجهود الأيدى وبمحاريث بدائية تجرها الثيران والعجول . والفأس الحديدية المصنوعة باليد وتسمى باتجول هى أنفع الأدوات اليدوية ، فان الحقول أصغر من أن تصلح لها المحاريث الآلية ، ثم أن الآلات الأجنبية غالية الثمن كثيرا والعمل اليدوى رخيص جدا ،

فالمحاريث الآلية تستعمل لحد ما فقط فى المزارع الكبيرة التى تنتج حاصلات تعود بكسب كبير .

وجوز الهند هو مصدر هام من مصادر الطعام ، كما أنه محصول للتصدير يعود بالكسب ، وأغلب الزيت المستعمل فى اندونيسيا يستخرج من عصير جوز الهند .

والأسماك كثيرة وزادت على أثر تقدم الصيد فى الداخل مع صيدها فى المحيط . ومن أغرب طرق الحياة فى هذه البلاد ما يسمونه « نور البحار » وهم صيادو أسماك يقضون حياتهم بأكملها فى قوارب صغيرة ، وليس شأنهم شأن سكان القوارب المربوطة إلى الشوطىء ، وهى ترى كثيرا فى آسيا ، بل هم من سكان المحيط الحقيقيين يقضون أكثر الوقت فيه حتى أثناء العواصف العنيفة .

ولا يسر الزائر الأجنبى فى اندونيسيا من أنواع الطعام الجديدة مثل سروره بالفاكهة الكثيرة ، ولعل أكثرها فى نظره هى البابايا التى يظهر أنها تنمو بسرعة النور فهى من حبة تصير شجرة طولها اثنتا عشرة قدما فى سبعة أو ثمانية أشهر ، وتوجد عشرات من أنواع الموز وحجمه ونكهة ، والبعض أكبر ضعفين من أى نوع تشتريه فى هذه البلاد . والأناناس كثير أيضا . ومن

الفواكه غير المألومة فى كثير من البلاد الجاكفروت والمنجوستين والرمبوتان (وهى فى منظرها مثل القوقعة البحرية) والمانجو والدوريان ، والأخيران جديران بالذكر خاصة .

ويقر أغلب الناس أن ثمار المانجو من ألذ الفاكهة فى العالم ، ولكن لا يتفق الناس فى طريقة أكلها دون اتلاف الملابس ، فإن القسم الذى يؤكل لاصق ببذرة كبيرة مسطحة والفاكهة مليئة بالعصير ، فأدى ذلك إلى استعمال طرق مختلفة فى أكلها ، ولعل خير الوسائل هو لبس رداء الاستحمام والخروج مباشرة مباشرة من مائدة الطعام إلى الحمام !

ولفاكهة الدوريان رائحة كريهة غير أن نكهتها عجيبة ، وقد وصف سائح انجليزى الرائحة بأنها أشبه بالمجارى الحلوة (يقصد هذا البريطانى مجارى المياه القذرة) ولكن أحد الأمريكيين يقول أن لها طعم مثلوج الأناناس مع البندق المطحون .

وكما هى الحال فى آسيا لا توجد من الطعام ما يكفى الناس ، على أن الأندونسين لديهم الطعام أكثر من كثير من أهل الهند وغيرها من البلاد الشحيحة الطعام ، ولكن هنالك سباقا دائما بين كمية الطعام والزيادة السريعة فى السكان . وما يؤثر فى الحاصلات إن هو إلا مسألة حياة أو موت للناس ، فليس من

المستغرب إذن أن تكون الاحتفالات الدينية والأعياد الشعبية مرتبطة بموسم الزراعة وموسم النمـــو وموسم الحصاد وإبعاد الأرواح الشريرة فى كل الأوقات .

وهذه الأعياد هى أمور بهيجة ، وتتخذ أشكالا مختلفة، وكان غالبا فيها الموسيقى والرقص والدراما وأبهى الثياب فى حلل تبرزها القرية. وهنالك أيضا احتفالات أخرى كثيرة متنوعة طول السنة فى كل مرحلة من مراحل حياة الإنسان من مولده إلى وفاته. وبعض هذه الاحتفالات خاص بمساحات صغيرة من البلاد ، وبعضها متماثل تماما فى جزيرة ومختلف فى أخرى ، والبعض من هذه الحفلات ـ كسباق الثيران فى مدورا ـ له شهرة عالمية مثل رقصات الثعبان التى يقوم بها الهنود الحمر من قبيلة النافاهو بأمريكا فهذه إنما هى عادة محلية صارت معروفة فى أنحاء الدنيا .

وحفلات الزواج هى مثال للمثل القائل «الوحدة فى الاختلاف» فبالرغم من أنها مختلفة فى طرق متعددة إلا أن الأجنبي يرى فيها تماثلا بين المساحات الإسلامية المختلفة ، بل يرى تشابها بين هذه الحفلات وحفلات الهندوكيين فى بالى والمسيحيين فى ملوكو . والعنصر المشترك فى الثقافات المختلفة هو حب الموسيقى والدراما والرقص ، وسنفحص فى الفصل التالى أغزر ميدان فى الفن الأندونيسى .

الفصل الحادى عشر

الموسيقى والرقص والدراما والفنون

إن الموسيقى والرقص والمسرح — ولكنه مسرح من نوع خاص جدا كما سنرى — هى من أقدم ، كما أنها من أعظم مفاخر الثقافة الأندونيسية ، وقد ابتدأ أغلب العالم الغربى يهتم بها الآن ، وهى تختلف كثيرا عن الأنواع التى نعرفها ، حتى أنها تبدو غريبة فى البداية .

لقد ظل أغلب الأوربيين الذين يذهبون إلى جزر الهند قرونا يظنون أن الموسيقى التى يسمعونها لا معنى لها ، وكانت أكثر الرقصات تضايقهم والمسرحيات من نوع لا يفهمه أحد ، وكذلك كل الاستعراضات التى تستمر طول الليل مرهقة جدا حتى أن الأجنبي المتعب صار ينأى عنها .

ولكن قليلا قليلا بدأ الباحثون المهتمون من الهولنديين والألمان والانجليز والأمريكيين يفتحون أعينهم للعجائب الخافية عنا فى الفنون الأندونيسية ، وبفضل بعض الفرق الجوالة من الراقصين والراقصات ومعهم جوقة موسيقاهم صار

الأمريكيون يرونها ويسمعونها بين فترة وأخرى ، ومما يبرهن على التقدم فى فهم هذه الفنون أن جامعة هارفارد أنشأت فصل محاضرات صيفية فى الموسيقى الأندونيسية سنة ١٩٦٠ م .

الواقع أن أول تقرير عن هذه الفنون فى اللغة الانجليزية كان مؤيدا لها ولو أنه لم يحدث أى تقدم فى فهمها بعد ذلك لعدة قرون ، فعندما زار البحار المجرب سير فرانسيس دريك جزر الهند فى سنة ١٥٨٠ جعل موسيقى السفينة يحتفلون بأحد الملوك المحليين ، ورد الأمير الدعوة وجعل موسيقييه يعزفون أمامه ، وقد سجل الضيف أنه سمع موسيقى هذا الملك « وهى وإن كانت من نوع غريب جدا إلا أنها تسر السامع وهى ممتعة له » .

ولو أن دريك تحدث بعد ذلك عن الآلات الموسيقية التى ارتاح لأصواتها لوجدنا أنها على الراجح مثل الآلات التى تستعمل الآن بعد أربعة قرون تقريبا ، وأننا لنعلم أن الكثير من أقسام جزر الهند لم يحدث فيه تغيير كبير ولو أنه فى بعض أقسام كان هنالك تأثير من قسم إلى قسم ، وحدث بعض التأثير من الخارج .

وتحاول الجمهورية الآن أن تحمل الأندونيسيين على أن يدرسوا الفنون والحرف فى البلاد جميعها ولكن إلى الآن بعض الآلات الموسيقية وأنواع والموسيق لاتسمع إلا فى بعض الجزر، على أن فنون الرقص والدراما فضلا عن الموسيق متقدمة بنوع خاص فى جاوة وبالى،أو هى على الأقل التى أقبل أهل الغرب على دراستها فى عناية .

والنوع المألوف عادة من الأوركسترا الأندونيسية يسمى « الجملان » وهو يقوم بعمل كبير لا فى الرقص وفى المسرحيات فحسب ، بل أيضاً فى الأعياد والاحتفالات التى ذكرناها فى آخر الفصل الماضى .

وكلمة « الجملان » معناها المطرقة ، وهو اسم ينطبق على الأوركسترا كل الانطباق لأن أكثر الآلات إما أن تقرع أوتدق. وقد يقول الموسيق أن الجملان هو كثرة آلات القرع فى الأوركسترا ، وأن الآلات الأساسية هى الجونج والطبول وآلات أشبه بالزايلوفون . وهنالك آلة أو آلتان أو ثلاث آلات وترية تعزف بقوس ، وهنالك آلة نفخ وهى نوع من المزمار . وصوت الإنسان منفرداً أو مجتمعاً كثيراً ما يستعمل .

وفى بعض الجهات من البلاد نجد إضافات جذابة لقائمة الآلات ولو أن هذه الآلات تعزف فى مجموعة غير التى تتألف منها جوقة الجملان ، وهذه الآلات تختلف عن الآلات المعروفة فى الغرب ولكن يمكن أن يقال أنها من أسرة التمبورين والرتل والسمبال والشايم والأوبوا واللوت والزيتر والباجبايب والهارب .

وفى جزر سلبيس نرى استعراضاً ماشيا لفرقة موسيقية عازفة على الفلوت والطبول (ولكن ليس فيها طبل كبير) وفى جاوة الغربية بنوع خاص وسومطرة نوع من الزايلوفون اليدوى من الخيزران يسمى (شيك انجكلنج) يقبل عليه الطلبة وفرق الشباب كثيراً . وكل آلة منه لها نغمة محددة . والشخص الممسك بالانجكلنج يهزها فى كل لحظة تحتاج إلى النغمة التى تخرج من الآلة ، وفى ذلك مران جيد لعمل الفرقة معا دون حاجة إلى دراسة واسعة للموسيقى . ولقد ابتدأت إحدى المدارس فى برنستون بالولايات المتحدة تكوين فرقة انجكلنج موسيقية لهذا السبب .

وآلات الجملان جميلة فى العين كما هى جميلة فى السمع وبذلت فيها أكبر مهارة فى صنع المعدن والخشب وتزين إطارتها زينة بهية وفى العادة لاتكون الآلة ملكا للفرد بل هى ملك للقرية أو القصر أو الهيئة الاجتماعية أو جماعة خاصة .

والكثير من مجموعات الجملان قديمة جدا وشهيرة فى ذاتها ولعل أشهرها هو الجملان المقدس فى جوجاكرتا ، وبعض الآلات الموسيقية فيه كبيرة جدا فى الحجم . وتروى الأساطير أن الجملان المقدس يرجع إلى عهد إمبراطورية مجاباهيت ثم تولاه المسلمون من بعد وهو يعزف عليه مرة فى السنة فى عيد المولد النبوى .

وسواء أكانت الآلات معروفة زمن إنشائها أم لا فان شكلها يدل دلالة واضحة على أنها نشأت فى زمن قديم ، وفى بعض الأحوال كانت قبل أن يفد الهندوكيون على الجزر ولكن قصور الملوك الجاويين الهندوكيين كانت أكبر مركز للحياة الموسيقية الراقية ، وأنه عهد يذكرنا بالمؤلفين الموسيقيين والفرق الموسيقية التابعه لأمراء فى عهد باخ وهيندل .

والموسيقى المعقدة التى يعزفها الجملان ليست مكتوبة بل انتقلت من الأستاذ إلى الطالب من عهد إلى عهد ، وهذا هو أحد الأمور التى صعب فهمها على الأوربيين فى الزمن القديم ، فان التجار والمغامرين الأوائل حين لم يروا مخطوطات الموسيقى ولم يسمعوا شيئا يشبه العبارة الموسيقية فى هذه السلالم الموسيقية

الغربية التى لم يألفوها ، قرروا أن مايسمعونه إن هو إلا لغط لا موسيق .

أما نحن الآن فاننا نفضل هؤلاء الرجال فى أمرين : أحدهما أننا أكثر تحملا للثقافات الأخرى منهم ، وأننا أقل تأكدا من أن طريقتنا فى عمل الأشياء هى خير طريقة . وفضلا عن ذلك أن الموسيقى التى نسمعها فى الغرب اليوم قد اقتربت بعض الشىء من النوع الأندونيسى .

فنحن نتقبل الألحان القائمة على السلم ذى الأبعاد الموسيقية الكاملة للموسيقار كلود ديبوسى ولا نجد صعوبة فى قوله ، ويقال أنه عرض على خاطره عند ماسمع موسيقى فرقة جملان جاوية فى أحد المعارض العالمية فى باريس .

أن تأليف الموسيقى ثم ترتيبها للأوركسترا قد يتبعان طريقة أشبه باجتماع خليط هواة الموسيقى فى أمريكا حيث نرى المؤلف المرتب يعزف الفكرة الأساسية على آلته الموسيقية فيتتبع الآخرون الفكرة ولكنهم يقسمون وينوعون ويبتدعون من تأليفهم .

والموسيقى فى جاوة لهما سلمان موسيقيان كل منهما فى العادة

يتألف من خمس نغمات ، وقد يرتاح القراء الذين يعرفون الموسيقى إذا ذكرنا لهم بعض التفصيلات عنهما :

إن أحد السلمين يدعى « سلندرو » ونغماته قريبة لأن تكون رى — مى — فاديبز — لا — سى . والسلم الآخر اسمه «بيلوج» والنغمات فيه أكثر اختلافا فى أبعادها وتسير على الوجه الآنى وهى تقرب من أن تكون رى — مى بيمول — فا — لا — سى ، ويضاف إلى ذلك أحياناً نغمة أو نغمتان . وفى الغناء تستعمل أيضا نغمات أقل .

وللجونج مغنى خاص فى تقسيم العبارات الموسيقية ، فهناك عدة أنواع من الجونج ذات أحجام مختلفة ونغمة مختلفة ، وهى تدل على نهاية أقسام كبيرة أو صغيرة فى الإطار الميلودى .

وفى الاقسام المسيحية من جزر سلبيس وملوكو عرف السكان التراتيل والموسيقى الغربية من وقت بعيد ، وفى أقسام متعددة من البلاد ابتدأوا يهتمون بالموسيقى الغربيـــة سواء فى ذلك الكلاسيكية أو الشعبية . ويروى أن الرئيس سوكارنو — وهو من المتحمسين للغناء والرقص — قد غنى لزائريه بعض المنتخبات من الأغانى الأمريكية .

وحدث فى بعض الأحوال أن قرنت فكرة موسيقية غربية ببعض الالحان التى يعزفها « الجملان » . والاغانى الحديثة تكتب الآن على السلم الموسيقى الغربى ، وكثيراً ماتسمع فى الإذاعة ، ثم إن الشيك انجكلنج الذى ذكرناه من قبل قد نظم على السلم الموسيقى — وقد نسمع فى بندونج وجاكرتا جماعة من الشبان ينشدون بعض الاغانى الامريكية « حبيبتى تعيش وراء المحيط » و « إلى بلدتى من وراء التلال ويقرنون الغناء بالعزف على أنجكلنج .

ويزداد عدد الاندونيسيين الذين تولد فيهم ذوق الموسيقى السنفونية الغربية وموسيقى الاوبرا أثناء دراستهم فى الخارج وألف عدد كبير منهم موسيقى الرقص الاوربية من الإذاعة والسينما ، ولكن هؤلاء ليسوا إلا جزءاً قليلا من الناس فى كل جزيرة ولا يقارنون بأولئك الذين يوجدون من كل جوانب الحياة ويعزفون موسيقاهم ويحبونها حبا عميقا .

والرقص الذى يتصل بموسيقى الجملان إن هو فى الحقيقة إلا نوع من الدراما . أجـــل إن هنالك رقصات شعبية يشترك فيهـا الجمهور ، إلا أن أكثر الرقصات المشهورة فى

جاوة وفى بالى وغيرهما من الجهات يقوم بها أناس مدربون خاصة لجمهورهم وهى عادة تروى قصته .

كل حركة لها معنى محدد لدى الناظرين . وحين يرى الغربيون الرقص الأندونيسى لأول مرة يتذوقون فيه رقة الحركات ولكنهم يدهشون عادة حين يرون أن السيقان والأقدام هى أقل أجزاء الجسم أهمية فى هذه الحركات الجميلة . والواقع أن الراقصة كثيراً ما تكون جالسة أو متمددة فى أكثر الرقص ، فالذراعان والأصابع والرقبة هى التى تقوم بأكثر الرقص .

ويكاد الغربيون يعجزون تماماً عن تقليد الحركات ولو ظلوا سنوات يتمرنون على ذلك ، فمثلا الحركة البسيطة ظاهراً وهى عمل حلقة كاملة تماما بالسبابة والبنصر ثم فتحها وإقفالها فى سرعة ان هى إلا حركة لم يستطع أى مقلد من الغرب أن يفعلها بما يرضى الأندونيسى .

ويبدأ خيرة الراقصين مرانتهم وهم أطفال ، وفى بعض المساحات مثل بالى تمتنع البنات عن الظهور فى الرقصات حين يبلغن سن الرشد ، وأنا لنجد دائما روح الشباب والنشاط ، فضلا عن الظرف والدقة التى لا تكاد تصدق فى هذا الفن الاندونيسى القديم .

وكل الرقصات تقريبا — فيما عدا الرقصات الشعبية — تتطلب ثيابا خاصة تبهر الأنظار بجمالها وغناها وتلبس لبعض الرقصات أقنعة مختلفة كما يستدعى العرض أحيانا مراوح وأزهاراً وواقيات الشمس وشموعا مضاءة وفناجين وسيف الحفلات العجيب أو الخنجر المسمى كريس .

ويعرف الجمهور الموضوع العمومى لكل رقصة مقدماً ولكن ذلك لا يفسد استمتاعهم بها ، بل على العكس يحبون أن يعرفوا كيف تتطور القصة ونراهم يتوقعون كل حركة ويفهمون المعنى الخفى لكل حركة للرأس أو للذراع .

وكما تنتظر فيما علمناه عن أشياء أخرى فى هذه البلاد ، أن بعض هـــذه القصص تقوم على أساطير شعبية قديمة ، ولكن الكثير منها نجد أصله فى كتب الهند العظيمة وأن تحولات لتلائم الأحوال الحديثة فى أندونيسيا . وبعض القصص تتناول الحوادث الجارية لا سيما القتال مع الهولنديين فى أثناء الثورة .

والغربيون لا ينظرون لمشاهد العرائس نظرة جدية ، وهم على الأقل لا يرون فى « الأراجوز » مكانا طبيعيا لابراز فكرة دينية ، إلا أن الأندونيسيين يرون فى العرائس نوعا من أعلى أنواع الفن الدرامى ، وهم لا يملون مطلقا مشاهدة

هذه العرائس التى يحبون مشاهدتها كثيراً ، ويبتدىء العرض فيها نحو الساعة التاسعة مساء ولا ينتهى إلا فى الساعة السادسة صباحاً .

والعرائس على أنواع مختلفة ولكنها تسمى جميعاً « ويانج » ، وهذه الكلمة معناها الظل ، والنوع المعتاد هو صور ترفع إلى أعلى وراء ستار مضاء من الخلف . ولكن هنالك أنواعا أخرى من العرائس ذات ثلاثة أبعاد ، وهنالك تمثيلية كاملة يقوم بها ممثلون حقيقيون وتسمى « ويانج أورانج » ؛ إذ أن كلمة أورانج معناها إنسان ، والاشارة إلى الظلال فى جميع هــــذه الأنواع من المسرح حتى لو لم تكن للعرائس يفسرها الأندونيسيون بطريقة ظريفة ، فهم يقولون : المسرحية ان هى إلا ظل للحياة ، وان الانسان ان هو إلا إحدى العرائس فى يد الله . وهنالك دعاء يقولون فيه « إلهى لأكن ويانج فى يدك » . . وما أقرب هذا القول لما فى كتاب « مزامير داود » بالتوراة .

وشهرة مشاهد الويانج أن هى إلا برهان — ان كنا نحتاج لدليل حتى الآن — للتأثير المحلى فى الآراء الأجنبية وان كانت هــذه الآراء قوية كالاسلام . وكما ذكرنا فى فصل

سابق أن المفروض أن الدين الاسلامى يحرم صور الانسان .
ومع ذلك نرى أناسا أتقياء من الشعب الأندونيسى يظهرون
الحماسة لا للصور وحدها ، بل لرسم أشخاص مجسمة . على أن
العرائس المنظمة العجيبة التى تجد إقبالا أكثر من غيرها فى
جاوة ، قد يكون المسلمون أحلوها بدل الصور التى هى أقرب
للحياة وكانت تستعمل قبل قدوم الإسلام . وهذا الاحتمال
يؤيده الواقع . أن العرائس المجسمة لا تزال تستعمل فى بالى
الهندوكية دون انقطاع .

ولعل أكثر نوع فى تمثيليات العرائس يجد إقبالا شديداً
هو النوع المسمى « ويانج كوليت » . والعرائس هنا صور
مسطحة مقطوعة من جلد الثور ومقواة بمادة غروية ومطلية
طلاء جميلا بالذهب وألوان أخرى ولكل منها يد من قرن الثور
وأنها فى ذاتها قطعة من الفن . وفى بعض الجهات فى أندونيسيا
يجلس الرجال وراء الستار حتى يروا العرائس نفسها ، فى حين
أن النساء والأطفال هم الذين يجلسون أمام الستار ليروا الظل
أمام الستار .

أما الستار فهو من القماش الأبيض المثبت إلى أطار من
الخيزران ووراءه الإضاءة وقد تكون الإضاءة كهربية كما

فى المدن ولكنها بالأكثر مصباح مضاء بزيت جوز الهند وفى نهاية الستار موضوعة أفقيا شجرتان ناعمتان من أشجار الموز يمكن لصق يد العروسة فيهما . وتكون فرقة الجملان وهى جزء من عرض الويانج وراء الستار أيضاً .

ولعل الوصف الأمريكى بأن شخصاً مشغولا كأنه مشبك ورق ذو يد واحدة ، هو وصف ينطبق على المخرج فى استعراض الويانج وهو نفسه يدعى « دالانج » فعليه فى عمله أن يكون — فى وقت واحد — راوى القصة ومحرك العرائس وقائد الأوركسترا ومولد تأثيرات الصوت الخاصة . وهو يجلس فى أسفل الستار . ولما كان الكثير من العرائس يمثل امرأة أو ملوكا فيجب عليه ألا توضع هذه العرائس تحت رأس الدالانج .

وتكون الأوركسترا على جانب من الدالانج وإلى الجانب الآخر صندوق أدواته وهو لا يحتوى على العرائس فقط ، بل على الآلات التى تعمل الصوت من الخيزران أو المعدن :

والقصص التى تمثل قد تبدو طويلة لا تنتهى للمتفرج الأمريكى بما تحتويه من مقتطفات من التاريخ والأساطير الغربية إلا أنها

لاتبدو غريبة أمام الأمريكى الذى يذهب إلى دور التمثيل المجاورة أو يقصد بسيارته دور السينما . ولعل بعض الشخصيات تختلف عن المألوف (مثل الشياطين وما ماثلها) : وتوجد سيوف غريبة عليه وصور مقدسة لايجدها فى السينما ولكن النضال ليس غريبا ، فهو النضال بين الأشخاص الطيبين والأشخاص السيئين (ويتغلب الخير عادة على الشر) أو مجهود الشاب فى الحصول على فتاته .

حتى التمثيليات ذات المغزى الأخلاقى التى تمثل فى ظروف دينية فيها جانب من التأثيرات التى تسترعى المتفرج . فالعرائس ذات تأثير قوى فى الجمهور سواء عرضت فى مسرح دائم فى مدينة كبيرة مثل باندونج أو يعرضها دالانج متنقل يذهب إلى أقصى القرى فى البلاد .

والعرائس المسطحة فيها فن كبير إلا أن العرائس ذات الأبعاد الثلاثة هى أمثلة أكبر على الفن فى النحت والتكوين والزخرفة وفيها الإتقان فى الصناعة الذى نجده فى الفنون الأندونيسية الأخرى المتوارثة من عصور ماضية .

ولقـــد ذكرنا من قبل مهارة النحاتين الاندونيسيين

فيما يتعلق بالمنازل . وكل زائر أمريكى لجزيرة بالى يعود عادة إلى بلده بأحد الأشخاص المنحوتة التى اشتهرت بها وكذلك الخزف والصناعات المعدنية المتنوعة . وتصنع من الفضة أدوات دقيقة حتى كأنها نسيج العنكبوت ، وهى من خصائص بعض الجهات . والزجاج والأباريق والأوانى من القصدير الصلب تصنع فى منتهى الذوق ، حتى إنها كثيرا ما توضع على الطاولات الجميلة بدل الأوانى الفضية :

وفى الأزمان السابقة كان الوصول إلى أعلى درجات الفن فى تصميم الأسلحة والسيوف . لا سيما السيوف المسماة « كرى » وهذا السيف الصغير أو الخنجر كان فى الأصل سلاحا للقتال ولكنه الآن مجرد رمز . ويوجد الآن بين هواة الفن من يعتبرون الكرى المتقنة أجمل قطعة فنية ترى فى اندونيسيا . وصناعة السلاح المعدنى أن هو إلا البداية فيه ، فان المقبض والغمد لا يقلان ابداعا فى تصميمهما .

لقد أظهر الاندونيسيون براعة فنهم حتى فى ميدان الألعوبة وألعاب الأطفال ، وهم ينشئون لعبا جميلة ومسلية من الورق والخيزران والطين والشمع وأوراق الموز وخشبه والأصداف وجوز الهند وأوراق النخيل ومواد أخرى بسيطة . وهنالك

أنواع لا تنتهى من قبعات اللعب للأطفال والشماسى والطيارات والثعابين المتحركة والشخاشيخ وغيرها من أدوات تحدث الصوت . وكثيرا ما نرى أطفال الأمريكيين الذين يزورون اندونيسيا يتركون لعبهم الميكانيكية المرتفعة الثمن ويقبلون فى فرح على تلك الأمثلة الجذابة من الفن الاندونيسى الشعبى .

ولكن من بين جميع الفنون اليدوية المعروفة فى وطنها وفى الخارج ليس منها ما هو معروف مثل الأقمشة المصبوعة بالطريقة المسماة باتيك ، وهنالك الآن أقمشة كثيرة تصبغ بطريقة ميكانيكية أو نصف ميكانيكية . على أن صناعة الأقمشه المصبوغة على طريقة الباتيك القديمة باليد لا تزال تستعمل . وفيها يصب شمع النحل المذاب على القماش من ابريق صغير ذى شكل خاص ، ويوضع الشمع خطوطا حسب الرسم الذى رسم من قبل ، وحين يغطس القماش الذى مر عليه الشمع فى لوحة الصباغة لا يمسك اللون إلا بالأقسام التى لم يلصق عليها الشمع ، وبعد الصباغة الأولى يزال الشمع ويوضع رسم آخر بالشمع ويستعمل لون آخر للصباغة ، وهكذا حتى ينتهى الرسم بجميع ألوانه . وهذا العمل من الصعوبة بمكان حتى أنه قد يستغرق المتقن منه

نحو الشهرين ، وأحيانا يستغرق ستة أشهر فى الباتيك لاخراج « سارونج » ذى قيمة خاصة .

وتستعمل بعض الشيء طريقة « الربط والصباغة » التى يستعملها الصباغون الأمريكيون فى عملهم بالمنزل ، ولكنها عند الاندونيسيين قد تكون أدق عن المعتاد ، فان الاندونيسيين أحيانا يربطون نهايات الخيط الدقيقة بصورة دقيقة مع العناية بدلا من كل أقسام القماش .

وقد أشرنا حين الكلام عن المنازل إلى المهارة الكبرى وحسن التخطيط فى تلوين الخشب . وفيما يتعلق بالتخطيط نرى عملية الباتيك مماثلة تماما لذلك . على أن التصوير على اللوحة كان فنا بطيئا فى انتشاره ، وهذا أمر مستغرب بعض الشيء ، لأن الهولنديين وفدوا على اندونيسيا وكان عددهم كبيراً فى العصر الذهبي للتصوير الهولندى . ويقال انهم جاءوا معهم ببعض صور رمبرانت وفرمير ، ومع ذلك لم يكن التصوير على القماش ذا أهمية فى جزر الهند وكان اتصالهم الثقافى بالأوربيين قليلا ، حتى أن التصوير كفن من الفنون (فيما عدا زخرفة الأدوات والمنازل) لم يبدأ حقيقة الا فى الأزمنة الحديثة .

ولكن الآن نجد جماعات ناشطة من المصورين والنحاتين الاندونيسيين ، وهناك مجموعة شهيرة من أعمالهم فى قصر رئيس الجمهورية فى جاكرتا .

ويخشى كثيرون من الاندونيسيين والأجانب أيضا أن الواردات من الغرب أو صوراً محلية منها تستعمل الطرق الرخيصة للاصدار للجماهير قد تقضى على الفنون والصناعات الموروثة ، فالاذاعة والاسطوانات تهدد بأن تحل محل الجلان ، والأقمشة الرخيصة المصبوغة صناعيا قد تنهى صناعة الباتيك اليدويه ، والسينما قد تقضى على فن الواچانج الذى بقى قرونا .

إن هنالك حقا خطرا يهدد الروح الفنية العجيبة الخالقة فى الاندونيسيين بسبب الاتجاهات الحديثه ، ولكن أصدقاء اندونيسيا يأملون أنها كما حدث مرات كثيرة جدا فى الماضي وفى وجوه عديده جدا ، ستستطيع فى هذه الحالة أيضا أن تأخذ من بقية العالم دون أن تقضى على الصفة الرقيقة الداخلية فى حياتها الفنية .

الفصل الثانى عشر

اللغة والتعليم

يتكلم الناس فى أندونيسيا أكثر من مائتى لغة ، وهذه اللغات متماثلة فى طرق متعددة إلا أن كلا منها تختلف عن الأخرى اختلافا يحمل العلماء على أن يعتبرها لغة منفصلة . إن اللغات الثلاث الكبرى التى يتكلمها عدد هائل من السكان هى الجاوية ويتكلمها أربعون مليونا ، والسوندانية ويتكلمها اثنا عشر مليونا ، والمادورية ويتكلمها ستة ملايين . وهنالك نحو ست لغات يتكلم كلا منها مليون أو مليونان وعشرات من اللغات الحديثة بها مقصورة على مساحة صغيرة .

ولكن بالرغم من هذا المزيج من اللغات التى لا تزال تستعمل فى حياة الأسر وفى الريف فى أقسام مختلفة فإن البلاد استطاعت أن تفرض على الناس قبول لغة وطنية واحدة تسمى بهاسا اندونيسيا (أى اللغة الأندونيسية) وقصة نمو هذه اللغة فى الثلاثين السنة الأخيرة جديرة بالذكر حقا .

فاللغات تنمو عادة فى بطء وتتغير فى بطء . وكثيرا

لا يرى مستعملوها يوميا ما يجرى من تغيير فى اللغة التى يتكلمونها ولكن نمو اللغة الأندونيسية وانتشارها فى البلاد بأكملها كانا نتيجة عمل شعورى قام به زعماء الحركة الوطنية .

قلما نجد فى التاريخ حالة كان فيها اتخاذ قرار محدد فى أمر لغة ناجحا مثله فى هذه الحالة ، وقلما نجد لغة جديدة إتخذها الناس سريعا وكان عددهم كبيرا .

وكل اللغات فى اندونيسيا تنتمى إلى أسرة اللغات المسماة « ملايو بوليفسية » وهى لاتوجد فقط فى الجنوب الشرقى من آسيا ، بل هى منتشرة أيضا فى خزر المحيط الهادى ، بل يتكلمها ركن صغير من أركان الولايات المتحدة التى تؤلف امبراطورية لغات واسعة . وهذا الركن هو جزيرة هواى ، فإن لغتها الأصلية تنتمى إلى هذه الأسرة ذاتها .

ومن بين الفروع المختلفة لهذه اللغة كانت اللغة المسماة ملايو ، ولو أنه لا يتحدث بها أكبر عدد من الناس إلا أنها اللغة التى قبلها المتعاملون التجاريون من مساحات مختلفة ليتفاهموا بها فى كلامهم ، وهكذا انتشرت معرفتها انتشارا واسعا لا سيما بالموانىء فى جزر الهند الشرقية . وبسبب هذا

الاتصال مع الأجانب دخلتها كلمات من لغات أخرى وصارت اللهجة الناشئة عن ذلك تعرف باسم « بورت ملاى » أو « بازار ملاى » أى « ملاى الميناء » أو ملاى السوق .

وفى أثناء القرون الثلاثة التى حكم فيها الهولنديون لم يكن هنالك أى نوع من التعليم الأندونيسيين ، ثم فى مطلع هذا القرن جاءت السياسة الأخلاقيه و بدأت المدارس للاندونيسيين، ولكن مع استعمال اللغة الهولندية ، وكانت النسبة الضئيله التى تتعلم فى هذه المدارس كلها تقريبا من أبناء الطبقة العليا وكانوا يدرسون فى كتب هولندية ويكتبون بالهولندية إذا كانوا حسنى الحظ فى أن يسافروا لإتمام تعليمهم فيذهبوا إلى الجامعات الهولندية .

ومما يدعو للسخرية ، وإن كان ليس بمستغرب ، أن أكثر الاحتجاج القديم على الحكم الأجنبى لم يكتب بلغة وطنية، وإنما كتب باللغة الهولندية .

ولكن موجة أرضية أخذت تطفو إلى السطح بين الناس ، ففى سنة ١٩٢٤ مثلا حدثت ضجة كبيرة حين قام بطل ثقافى اسمه جايا دنجرات وخطب بلغة الملايو فى مجلس الشعب

الذى أنشأه الهولنديون ، وكان عضوا فيه ، وقد استعمل كل من الحزب الاسلامى والحزب الشيوعى لغة الملايو . وفى سنة ١٩٢٨ اجتمع مؤتمر للشباب وقرر تأييده للغة وطنية واحدة وابتدأت جماعة نشطة من الشبان إصدار مجلة أسموها بوجانجا بارو (أى الكاتب الجديد) ساعدت على انتشار استعمال لغة الملايو بين الوطنيين المثقفين وبدأت اللغه التى يشجعونها تعرف بأنها اللغه التى يشجعونها تعرف بأنها اللغه الأندونيسيه .

ولما كانت اللغه الأندونيسيه غير معروفه فى البلاد الأخرى فيحتاج الأمر إلى لغه عالميه للاتصال بالمعلومات العاملة والآداب ثم لاستعمالها فى المعاملات الأجنبيه ، وكانت الهولندية قبل الاستقلال هى اللغة المستعمله طبعا لهذا الغرض ولكن هذه اللغة نفسها من اللغات الصغيرة ، ولهذا السبب من جهة ، ومن جهة أخرى بسبب الشعور العاطفى بالابتعاد عن أى اتصالات استعمارية جعلت اللغة الانجليزية هى اللغة الأجنبية الرسمية .

وإلى جانب اللغة الاندونيسية واللغـــة الأجنبية فان للاندونيسيين أيضا لغاتهم المحلية ، ولكى أبين إلى أى حد تسير هذه المسألة أضرب مثلا بصديق لى من أهل جزيرة

مدورا فهو يتحدث لغة مدورا مع أمه واللغة الأندونيسية مع زملائه فى المعاملات ، واللغة الهولندية مع زوجته وهى من سومطرة ، واللغة الجاوية مع مربية أطفاله ، ويتحدث الانجليزية بطلاقة مع أصدقائه الأمريكيين ، وهو يعرف بعض الفرنسية والألمانية من المدرسة ، وبعض اليابانية من زمن الاحتلال اليابانى ، وبعض العربية من القرآن الكريم .

ولعله من الظلم أن شعباً يتعلم اللغات بهذه السهولة تكون له لغة من أسهل اللغات ، فأى قارىء من قراء هذا الكتاب درس الفرنسية أو اللاتينية أو الألمانية لا بد أن يغتبط باللغة الأندونيسية ، فهى متعة حقة للدارس المبتدىء إذ أنها خالية من التصريف والفاعل والمفعول والحال والجموع . وتغير الكلمات وغيرها من قطاعات الدراسة وليس للأفعال والصفات فيها أن تتفق مع الأسماء .

وفى أكثر الوقت لا نجد فرقاً بين المفرد والجمع . فحين يريد الأندونيسيون أن يذكروا كلمة على أنها جمع دون أن يكون العدد محدداً فانهم يكررون المفرد ، فكلمة « بوكو » عندهم معناها كتاب فاذا أرادوا الجمع قالوا بوكو بوكو . وفى الكتابة أو الطباعة يستعملون بدلا من ذلك رقم ٢ بدلا من التكرار فيكتبون بوكو ٢

وهنالك فضيلة أخرى فى اللغة فضلا عن عـــدم وجود الأجرومية وسهولة النطق ، هى أن هنالك كلمات كثيرة مقتبسة من لغات أخرى بعضها لغات لانعرفها وبعضها من اللغة اللاتينية لها شبيه بالانجليزية والفرنسية والبعض من أصل جرمانى وصلت إلى أندونيسيا عن طريق الهولنديين ولها ما يشابهها بالانجليزية . وهناك كلمات أخذت رأساً من الأنجليزية عن طريق التجار البريطانيين أو الأمريكيين فى الأيام القديمة أو أيام عهد رافلز حين كانت البلاد تحت حكم الأنجليز أو فى الأزمنة الحديثة جداً من الاتصال بأمريكا .

ولا يجد الغربى حاجة إلى معجم « قاموس » ليعرف معنى كلمـــات أندونيسية مثل يونيفرستياس وبريزيدن وتبلبون وتلجـــرام وجانيوراى وفبروارى واندستورى وهنالك كلمات قد لا يخمنها الغربى ولـكن لن ينساها إذا عرفها مرة مثل أس لـكلمة آيس وانجريز لـكلمة الانجليز بورويل لفرى ول (أى الإرادة الحرة) وبولبن لفاونتن بن (أى قلم الحـــبر) وساوس للصلصة وسبيدا موتور للموتوسيكل وبورترت للصورة الفوتوغرافية وبارتيـكرلير أى خصوصى . وفى العلوم الحديثة والتـكنولوجيا نجد أكثر الـكلمات مقتبسة

من هذا الأصل الدولى ، كما أنها مقتبسة أصلا من اليونانية وانتقلت منها إلى اللغة الأوربية مثل الأنجليزية .

ومزية أخيرة فى هذه اللغة للمتعلم الغربى فى بداية تعليمه أنها تكتب بالحروف الرومانية المستعملة فى الانجليزية وغيرها من اللغات . ولكيلا يأخذ الغربى هذا الكلام ويظنه قاعدة تنطبق على اللغات الشرقية عليه أن يتذكر أن الأندونيسية هى فيما عدا التركية اللغة الشرقية الوحيدة التى تكتب بحروف غربية . وكانت لغة الملايو وهى الأصل فى اللغة الأندونيسية تكتب بذلك الخط الجميل ، الذى يقرأ من اليمين إلى اليسار برغم صعوبته .

وقد حدث أمر يستدعى النظر فيما يتعلق بلغة الملايو ، وهى اللغة الأم التى ولدت منها الاندونيسية ، فالملايو هى اللغة الوطنية فى البلاد المجاورة أى اتحاد الملايو ، على أن الشعب الاندونيسى يزيد على أهل ملايو بنسبة ١٠ إلى ١ ولذلك يمكن أن يقال أن اللغة الوليدة كبرت ونمت أكثر من أمها . ولذلك أخذت اللغة الجديدة تؤثر تأثيراً كبيراً فى اللغة القديمة كما أثرت انجليزية الامريكيين فى انجليزية البريطانيين . على أن الاختلاف بين نوعى لغة الملايو أكبر ،

فالتغير فى الهجاء بينهما عدل فى ترتيب الحروف . فمثلا فى الأندونيسية « تج » هى « ش » فى لغة الملايو ، ولذلك وقعت الدولتان اتفاقاً فى سنة ١٩٦٠ يرجى به القضاء على الفروق .

وحين اتخذ قرار اللغة الوطنية كان من الممكن اختيار اللغة الجاوية ؛ إذ يعرفها أكبر عدد من أهل جزر الهند ولكن الوطنيين خشوا من أخطار الغيرة التى تتولد عند أهل البلاد من غير جاوة الذين يسكنون الجزر الأخرى ، بل من المتحدثين باللغة السندانية والمدورية فى جاوة نفسها .

على أن الاعتراض الحقيقى على اللغة الجاوية كان أنها متصلة فى عقول الجماهير بالطبقات العالية ، فالأرستقراطية فى الأزمنة السابقة كانت هى وحدها التى تقرأ وتتعلم الجاوية . ولذلك كانت هذه اللغة فى صيغتها المكتوبة تعتبر خاصة بالارستقراطية ، وهى أقل فائدة لأمة حديثة من لغة الملايو التى هى أقرب لجماهير العامة ، ومع ذلك فان اللغة الجاوية بها تعقيدات فى أساسها ، فان التحدث بها يكون على ثلاثة أنواع حين التحدث إلى الرؤساء أو إلى من هم أقل درجة أو من هم فى مستواك ، فليست هى إذن اللغة الجديرة بالاستعمال فى بلد ديمقراطى .

وعلى ذلك صارت اللغة الوطنية القائمة على لغة الملايو أكثر من مجرد وسيلة للاتصال ، فهى رمز للوطنية وإحدى الطرق التى بها ربطت أندونيسيا الأقسام المختلفة من بلادها ولا تزال الروح المحلية قوية فى أندونيسيا وفى بعض الأحيان أقوى مما يتفق مع صالحها . على أن الفقرة المحلية والإخلاص المحلى فى أندونيسيا مهما بلغا فإنهما لا يبعدان عن الوطنية العامة للبلاد ، شأنهما شأن الولايات المتحدة . فالأمريكى فى ولاية كنساس وفرمونت المتعلق بحب ولايته يعتبر مواطناً أمريكياً أحسن بسبب هذا الشعور .

وترجو أندونيسيا أن تحقق نفس الولاء الذى نجده فى شعارها الوطنى كما يوجد فى الولايات المتحدة وهو قائم على الاحترام والفهم بل هو يشمل أيضاً الفخر بالثقافات المتنوعة للمواطنين فى الأقسام الأخرى من الوطن . فالمسلم فى سومطرة مثلا يفخر بالرقص الهندوكى فى بالى ، والجاوى ينبهر باتقان تصميم الفن الشعبى من السلبيس أو جمال بيوت مينتجكباو . والناس من جميع أنحاء الجزر يؤخذون لروعة الآثار الهندوكية أو البوذية فى جاوة ، ومسلمو جميع الجزر يحترمون جميع الموظفين

العموميين القديرين ولو كانوا مسيحيين من سومطرة ، والشعب بأسره يقدر أبطاله مهما كانت أقسام موطنهم أو دياناتهم أو طريقة حياتهم .

لقد تحدثنا طويلا عن اللغة فى هذا الفصل لأنها إحدى القوى الثلاث الأساسية التى تربط البلاد بعضها ببعض . أما القوتان الأخريان فهما الدين وحب الاستقلال . لقد لعبت هذه القوى الثلاث دوراً كبيراً فى أكبر مجهود قامت به الأمة منذ بدايتها وهو التعليم .

فى عدد من المسائل لم تكن الدولة الجديدة موفقة ، فالإنتاج أقل فى ميادين كثيرة والاقتصاد بوجه عام صار إلى حال محزنة ، وتجربة الديمقراطية السياسيه لم ترض الأندونيسيين دع عنك الناقدين من الأجانب ، ولكن التقدم فى التعليم وإن كان يحتاج إلى خطوات أوسع إلا أنه كان بارزاً فى مجهوده .

وكما ذكرنا من قبل أن عدد القادرين على القراءة والكتابة زاد من سبعة فى المائة من السكان إلى تقدير رسمى هو ٥٧ فى المائة سنة ١٩٦٠ وقفز عدد المدارس الابتدائية إلى ٢٠٠ فى المائة منذ الاستقلال والمدارس الثانوية إلى ٩٠٠ فى المائة ، وبدأت فى

الوقت ذاته جامعات ومعاهد تربية ومعاهد صناعية ، ومن أهم ما عمل من بعض الجوانب إيجاد فصول للتعليم الجماعى للكبار فى جميع أنحاء البلاد .

ونرى دوراً لحضانة الأطفال فى سن الرضاعة ودور حدائق للأطفال ، على أنها للآن لاتزيد عن بضع مئات ، ولكن العدد يزداد وأكثرها دور خاصة تشرف عليها الكنائس والجمعيات والأفراد ويدير الكثير منها أساتذة تدربوا فى الولايات المتحدة أو غيرها من البلاد الأجنبية وهى فى مظهرها مثل المدارس الأمريكية وفيها برامج مماثلة من ألعاب وغناء وفنون وصناعات وأكثر أدوات المدرسة حسنة التنظيم جدا .

وفى نظام الدراسة الحكومية يقضى الطالب ست سنوات فى المدرسة الابتدائية ثم يتلوها ثلاث سنوات فى المدرسة الاعدادية ثم ثلاث سنوات أخرى فى المدرسة الثانوية ثم ينتقل إلى الجامعة أو المعهد المهنى . وبالرغم من التحسينات فى السنوات الأخيرة فإن عدد الذين يصلون إلى أعلى السلم صغير جدا وينهى كثير من الأطفال دراستهم فى الدرجة السادسة أو قبل ذلك ، فالمدارس العالية هى أقرب إلى أن تكون ميزة خاصة أو مكافأة للتفوق أكثر منها فى أمريكا .

والكثير من المدارس الثانوية ، بل وفى بعض الأقسام الإعدادية إن هى إلا مدارس مهنية تسمح بابتداء التعليم المهنى على أثر المدرسة الابتدائية مباشرة . وتوجد فضلا عن المدارس النظامية مدارس عديدة للتعليم الخاص فى الأعمال التجارية والتدبير المنزلى والميكانيكا والزراعة والأعمال الاجتماعية وما شابه ذلك .

وفى المدارس الابتدائية بنوع خاص وفى المدارس العليا أيضاً تعتبر الدراسات الوطنية مادة أساسية ، وقد صار لهذه المادة أهمية خاصة بسبب الجهد فى نشر بذور تفهم الآراء الحكومية .

ويفهم من بعض آراء أبديناها سابقاً فى هذا الفصل أن اللغة لها مكان كبير فى الدراسات بالمدرسة ، ففى كل منطقة يكون التعليم باللغة المحلية (جاوية كانت أم سوندانية الخ) فى السنتين الأولين ، وبعد ذلك لا تستعمل غير اللغة الوطنية فى التعليم والإنجليزية ، وأحياناً تكون لغات أجنبية أخرى موضوع الدراسة .

والنشاط المدرسى للطلبة أقل منه فى أمريكا ، ولكن الأندونيسيين يعتاضون عن ذلك بالعدد الكبير من جماعات

الشباب التى تعينها الحكومات أو الهيئات الخاصة . وحركة الأولاد ناشطة بنوع خاص ، وفى بعض المدن توجد جماعات مثل الجمعيات فى أمريكا للغنـــاء والرقص والموسيقى والألعاب الرياضية .

وليس الأندونيسيون بالراضين عن مدارسهم إلى الآن ، فهم يلحون طول الوقت مطالبين بالتوسع فى مبانى المدارس وزيادة عدد الأساتذة وزيادة عـدد الكتب وتحسين نوع التعليم أكثر مما هو الآن . وبدلا من أن يكونوا راضين عن النجاح الذى تم فى السنوات الأولى من الحكم الجمهورى فإنهم يرون أن النظام الحالى ليس منتصف الطريق لما يرجون تحقيقه فيما بعد ، ولكن الأجنبى عنهم يرى أن مجرد بناء النضام التربوى الحاضر هو مجهود جدير بالتقدير ، وهو قد استفاد بالمجهودات التى بذلتها مجموعات متعددة مختلفة فى أندونيسيا وأنها تستفيد الآن بمجهودات الأندونيسيين الذين تعلموا فى الخارج فضلا عن الاختصاصيين الأجانب الذين ترسلهم الحكومة الأمريكية بناء على طلب أندونيسيا من رجال المؤسسات الأمريكية والجمعيات الدولية .

وإلى جانب هذه النهضة الكبيرة فى التعليم حدثت تطورات

فى ميدان الصحف والمجلات ونشر الكتب . وكانت هذه الأوجه من النشاط فى يد الهولنديين تماماً ولم يكن إلا قليل من الأندونيسيين لهم تجربة سابقة فيها ، ومع ذلك اندمجوا فيها اندماجا طبيعياً جداً ، وأما الأندونيسيين مشكلات عدة فى هذا الميدان أصعبها الرقابة والنقص فى الورق ومع ذلك اقتحمه الأندونيسيون فى قوة وابتكار . وبعض دور الكتب فى جاكرتا تعتبر من أحسنها نظاماً وأجمل جاذبية من أمثالها فى آسيا .

ومن بين الكتب المستوردة فى السنوات الأخيرة أكبر عدد منها كتب أمريكية بفضل اتفاق وضعته الحكومة الأمريكية يسمح لأندونيسيا بشراء الكتب الأمريكية بنقدها دون أن تكون مضطرة للدفع بالدولار . وعلى كل حال فإن الكتب المكتوبة باللغة الإنجليزية رائجة جداً فى أندونيسيا اليوم ، وتستعمل الكتب الدراسية الأمريكية فى كثير من الدراسات الجامعية . ونشرت كذلك ترجمات الكتب الأمريكية إلى اللغة الوطنية .

وقد صدر عدد من الكتب باللغة الأندونيسية ولكن هذه اللغة ينقصها الأساس وهو السنوات السابقة فى آداب هذه

اللغة . فالكتب القديمة كانت عادة بالهولندية ، ثم إن التقليد الأرستقراطى الذى علق باللغة الجاوية ، إذ أن الكتابة بها تكون للطبقة العليا وعنها ، أمر لا يساعد . فالرقابة والصعوبات الاقتصادية وغيرها من المتاعب سببت للكتاب مشكلات جديدة فى السنوات الأخيرة . ولكن يظهر أن الكتابة باللغة الأندونيسية صارت الآن واقفة على قاعدة ، وعلى الأقل وجدت أهم شىء لنهوض لغة وطنية : لقد وجدت جمهورا يستطيع قراءة ما يكتب بها .

الفصل الثالث عشر

نحو المستقبل

فى أبريل سنة ١٩٥٥ صارت مدينة بندونج من جاوة الغربية مركز اتجاه أنظار العالم ، وحلت بندونج لبعض الوقت محل موسكو وواشنجتون فى الصفحات الأولى للصحف ، وذهب الصحفيون من جميع أقطار الأرض إلى تلك المدينة الأندونيسية الجميلة التى لم يسمعوا عنها قط قبل أشهر قليلة .

وبندونج مدينة ساحرة بشوارعها النظيفة وفنادقها الجميلة ، ولقد قال عنها زائر أمريكى : لم أكن لأتوقع مدينة « ألطف منها » . وكانت لمدة طويلة مركز الحياة الثقافية لأهلها السندانيين ، كما أنها مشهورة بمشاهدة العرائس فيها ، ولكن لم تكن هذه الأمور سبب الاهتمام العالمى بها .

كانت المناسبة هى عقد أول اجتماع لم يحدث مثله من قبل لممثلى جميع الدول الآسيوية والأفريقية تقريبا وحضر مؤتمر بندونج نهرو رئيس وزراء الهند وجمال عبد الناصر رئيس

الجمهورية العربية المتحدة وأغلب زعماء الدول التى استقلت أو التى ستستقل فى القارتين .

وكان مؤتمر بندونج مع ذلك نقطة عظيمة فى التحول التاريخى ، فقبل هذا الاجتماع كان أهل القارتين حتى الشعوب التى حصلت على الاستقلال الكامل ظلت تعتبر نفسها تحت وصاية أوربا ، وفى بندونج تحققت هذه الدول فجأة من قوة استقلالها .

ولكن يظهر أنهم لأول مرة دهشوا كذلك لضخامة المسئوليات الواقعة عليهم أمام العالم فكانوا فى بعض اتجاهاتهم كمجمع طلبة ظل سنوات يحدث اضطرابات من أجل حقوق فلما كسبوها ووجهوا فجأة بالمسئوليات التى لم يقدروا أنها سوف تسلم إليهم مع السلطات التى رغبوا فيها ، أو هم أشبه بشاب حصل على ترخيص بقيادة سيارة فبدت أمامه فجأة بالمسئوليات حين يجد نفسه أخيرا منفردا وراء عجلة القيادة .

فالكثير من المشاكل العالمية التى تركتها الدول الحديثة للدول التى هى أقدم منها ألقيت مباشرة على عاتقهم . ولم يتقرر شىء بشأنها . ولكن الاجتماع كان بمثابة بلوغ سن الرشدللحركات الوطنية فى أفريقيا وآسيا .

وكانت المناقشة فى الحكم الاستعمارى ــ أى حكم المستعمرات من بلاد أخرى ـــ عنيفة بنوع خاص فى بندونج . فالكثيرون من الزعماء الحاضرين كانوا من قبل ، أن لم يكونوا الآن ، ثوارا وكانوا معتادين الحملة على بريطانيا وهولندة وغيرهما من الدول الاستعمارية باعتبارها مستبدة بالدول الخاضعة لها . وقد اعتادوا هذه العادة حتى أنهم ظلوا يرددون هذه النغمة فى بندونج ولو أن الكثير من المواقع التى شنوها على الدول الاستعمارية الأوربية قد كسبت . ومن الطبيعى أن شو ـــ ان ـــ لاى مندوب الصين الشيوعية اللبق بذل كل ما يمكنه لتشجيع هذه الأقوال .

ولكن بعض الآخرين ـــ لاسيا رئيس وزراء سيلان ـــ أوضح أن نهاية هذا القتال قريبة ، بينما أن استعمار مستر « شو » وغيره من الشيوعيين فيه خطر قائم ونشيط على الحرية فى آسيا وأفريقيا . وانتهى المؤتمر بالحملة على الاستعمار من أى نوع ، وقد يكون ذلك أمرا مثيرا جدا ولكنه كان المرة الأولى التى أقدمت فيها الدول الآسيوية والأفريقية على الاعتراف بأن الدول الأوربية القديمة ليست هى الوحيدة التى تهددهم .

وكانت كلمة الافتتاح من الرئيس سوكارنو ذات أهمية بصفة

خاصة للأمريكيين ، لأنه عالج فيها تاريخهم القديم وصادف أنه كان يتكلم يوم الذكرى الثمانين بعد المائة لتحرك بول ريفير ، وقد أخذ الصحفيون الأمريكيون حين رأوا زعيم دولة جديدة على الجانب الآخر من العالم يذكر هذا الأمر ، ولم يكتف بالإشارة إلى هذه الذكرى بل قال : إن الثورة الأمريكية « هى أول حرب على الاستعمار انتصرت فى التاريخ » واقتبس من شعر لونجفلو أبياتا معناها ما يأتى :

« إنها صيحة التحدى لا الخوف .

صوت فى الظلام . دقة على الباب .

كلمة تتردد أبد الآباد » .

ثم استمر يقول : « نعم ستردد أبد الآباد . . ولكن تذكروا أن هذه الحرب التى قامت منذ مائة وثمانين سنة لم تكسب نهائيا ولا يمكن أن يقال أنها كسبت نهائيا إلا بعد أن تنظر جميع مساحات هذا العالم ونرى فيه الاستعمار مجندلا قتيلا » .

وقد ذكر « الاستعمار فى ثوب جديد » على أنه السيطرة الاقتصادية والسيطرة الثقافية لجماعة قوية داخل بلد من

البلاد ، وظن بعض السامعين أنه يتكلم عن الشيوعيين ، وظن البعض الآخر أنه يقصد قبضة رجال الأعمال والمال الهولنديين والصينيين على الاقتصاد الأندونيسى ، ومثل هذا النفوذ فى بعض البلاد الأخرى من رجال الأعمال الأوربيين والأمريكان .

ومنذ ذلك الوقت زاد المؤيدون للشيوعيين بين السياسيين ونفوذهم زيادة كبيرة فى أندونيسيا وقد وضعت الحكومة يدها على كثير من الشركات الهولندية كما أنها حرمت على رجال الأعمال من الصينيين العمل خارج المدن الكبيرة .

إن المستقبل غير مؤكد ، فقد قطعت أندونيسيا آخر روابطها مع هولندة وحصلت على أكبر المساعدة من الولايات المتحدة ومن البلاد الشيوعية ، ولكن من الوجهة الإقتصادية انحدرت البلاد ، ففى السوق السوداء تباع العملة الرسمية وهى الروبية بجزء صغير من قيمتها الرسمية .

ومن الوجهة السياسية عدلت أندونيسيا عن محاولتها اتخاذ الديمقراطية التمثيلية على الطريقة التى تعرفها أمريكا ، وهى تحاول طريقا آخـــر يسمى « الديمقراطية الموجهة » حيثه

لا يسمح بالأحزاب السياسية غير المؤيدة للحكومة . ولما كان الحزب الشيوعي يؤيد الفكرة فقد ارتفع إلى مستوى جديد . بينما أكبر حزب مناهض له وهو « حزب مسجومى » حل نهائيا . وقد يكون من المحتمل أن توجد عجلة توازن فى الجيش الذى ظل له نفوذ ثابت ضد الشيوعية فى أزمات كثيرة فى الماضى .

ومهما تكن السياسة التى سببتها الحكومة فى نهاية الأمر ، فمن المؤكد أنه سيكون فيها جزء كبير من الاشتراكية فى الأمور الاقتصادية . وستتولى الحكومة أشياء كثيرة من التى تترك لرجال الأعمال فى الدول الرأسمالية ، وستحاول على الأرجح القيام بالخدمات الاجتماعية كما هو الشأن فى «الحكومة الاجتماعية» على نطاق واسع .

وكان الاشتراكيون بين الاندونيسيين يشعرون فى الماضى أنهم لا يستطيعون قبول الرأسمالية مباشرة ، إذ أنها تقيد الحرية الاقتصادية ، ولا قبول الاشتراكية رأساً من النوع الماركسى ، إذ يعرفون أنها تنكر الحرية على الفرد ، فهم يريدون على الأسلوب الأندونيسى المعتاد من زمن بعيد أن يروا هل المستطاع اتخاذ نظام خاص بهم يجمع قسما من

الجانبين ، ولذلك كانوا يهتمون اهتماما كبيرا بنظام « الجمعيات التعاونية » الاسكندنافية لهذا الغرض . ولقد درس الدكتور « حتى » وبعض معاونيه نظام السويد فى ذلك دراسه خاصة ، إذ ظنوا أنهم بهذه الدراسة يجدون طريقا وسطا .

وما يخشاه الكثير من الاندونيسيين هو أن الشيوعيين وهم تحت نفوذ خارجى ويهتمون بالمسائل العالمية أكثر من اهتمامهم بمصالح الاندونيسيين ، قد يقضون على كل حرية لو صارت أمور الحكومة إليهم ، ويجب الاحتفاظ بقسط من الحرية إذا أريد أن تقيم اندونيسيا نظاما مناسبا للأحوال فيها .

ويظهر أن البلاد تتعرض لأزمة سياسية فى كل شهر . والأزمات الاقتصاديه خطيرة وكثيرة ، حتى إنه — كما ذكرنا مرارا فى هذا الكتاب — يفكر العالم دائما إلى أى زمن ستبقى اندونيسيا على هذه الحال .

على أن اندونيسيا تغلبت على كل شىء إلى الآن ، فان عندها موراد طبيعية عظيمة من موارد القوة وهى ليست فقط مادية بل موارد روحيه وقلبيه ، فأهلها يحبون العمل كثيرا حين يجدون حاجه إليه ، وهم يميلون إلى أن يظلوا فى

عملهم مهما تكن الحوادث السياسية ، ثم فوق ذلك عندهم معين هائل من الصبر .

وهناك أساس قديم يشبه الديمقراطية في حياة الريف ، ثم هنالك روح « الجوتنج روجنج » أو تبادل المساعدة الذي ذكرناه من قبل . وبالرغم من إدخال نظام « الاقتصاد المالى » فإن الكثيرين خارج المدن يعيشون على ما ينتجونه هم أنفسهم ولا يشترون بنقودهم غير القليل طول السنة . وتملك الأرض موزع توزيعاً واسعاً . و « مشكلة الملاك » أقل منها فى الدول الآسيوية . والتقليد القائم على « المشاورة » أو المناقشة هو حل موفق بدلا من المشاحنة بالمسدس ، والمثل الخمسة العليا للثورة (ومن أهمها الاعتقاد بالله فى هذا البلد الإسلامى) ومبدأ التسامح القائل : « الاتحاد فى الاختلاف » إن هى إلا القواعد التى تقوم عليها جماعة يجب أن تفهمها أمريكا وتؤيدها .

إن ما نرجوه لهذا الشعب الظريف الوديع ألا يقلد تقليداً أعمى النظام الأمريكى الذى قام على تاريخ خاص وأحوال خاصة ، ونرجو أن يوفقوا كالأمريكيين إذ يجدون نظاماً يسمح بجمعية حرة مع الاحتفاظ بالكرامة للمواطنين وأوسع حياة للفرد منهم — فى جسمه وعقله وروحه .